

نَظَرَةٌ فِي فَهْمِ التَّارِيخِ

د. سليمان سعدون البر

جامعة الكويت

إن كلمة « تاريخ » تعني ذلك العلم المتعلق بالإنسان منذ أن بدأ في التعبير عن فكره ، ناحتاً ذلك الفكر على الحجر بالكهوف والمغارات . وفي اللغة العربية ، نجد « التاريخ » أو « التاريخ » تعني الإعلام بالوقت وما يلحق به من حوادث ووقائع ، أي أنه علم يبحث عن وقائع الزمان من ناحية التعبير والتوقيت، وموضوعه الإنسان (١) . واستعملت كلمة « التاريخ » في تراثنا العربي الإسلامي لتعني أمجاد القوم وخلاصه شمائلهم كما تعني تراجم الرجال ورواية أخبار الماضي .

وفي اللغات الأجنبية الحديثة نجد أن كلمتي History الإنكليزية ، و Histoire الفرنسية ، مشتقتان من الكلمة الإغريقية Historia بمعنى التعلم . أما في اللغة الألمانية فالكلمة Geschichte تعني حوادث الماضي ، أو ذلك الذي حدث أو العلم الذي يحقق في هذا الشيء الذي حدث . ولقد استخدم فلاسفة الإغريق كلمة « التاريخ » لتعني سرداً منظماً لمجموعة من الظواهر الطبيعية سواء أكانت مرتبة ترتيباً زمنياً أم غير مرتبة . وحين اختصت كلمة Science لتعني « السرد المنظم للظواهر الطبيعية » دون الاعتماد على ترتيبها الزمني ، أصبحت كلمة « التاريخ » مقتصرة على سرد الظواهر الطبيعية المتعلقة بالمسائل الإنسانية والمرتبة ترتيباً زمنياً . وبكلمة أخرى

أصبح معنى التاريخ « الماضي والعلم به » (٢) . ومن ناحية أخرى ، فإن اللفظة تطلق تارة على الماضي البشري ذاته ، وتارة على الجهد المبذول لمعرفة ذلك الماضي ورواية أخباره ، أو العلم المعني بهذا الموضوع (٣) .

لقد عرف بعض الكتاب التاريخ بأنه « علم الماضي » ، غير أن هذا التعريف فضفاض يخشى منه التأثير على خصوصية التاريخ ، ذلك لأن الماضي عبارة عن وعاء يشمل كل مظاهر الكون بمختلف أشكالها وأوانها ، فهو يتسع لعلم الجيولوجيا وعلم تطور الحياة وعلم النشوء والارتقاء وعلم الفلك ... الخ . وبذلك أصبح لكل علم صنف من هذه العلوم علماءه ومختصوه ومؤرخوه ، وأصبح للتاريخ مفهوم خاص يتعلق بالكائن البشري وما طرأ عليه في الماضي من أحداث وتطور حضاري ومدني ، وغدت دراسة تاريخ العلم محبذا في مثل هذه الدراسة .

وطالما الأمر كذلك فإن للثقافات القديمة سمات متميزة تدل بوضوح على دور الإنسان الحضاري ، مثل ثقافة العصر الشيلي Prechellean ، أو الحضارة الشيلية أو الأشولية Acheullean أو الموستيرية Mousterian أو الأورنيانية Aurgnacián ، وأخيرا ثقافة وحضارة العصر الحجري الحديث ، وما تلى ذلك العصر من ثقافات ، ولكل حضارة أو ثقافة مكان متميز في تحديد البدايات الأولى لما نسميه « شبه التاريخ » (٤) ، والذي اتضحت صورته عندها جنح الإنسان إلى الأساطير أو الخرافات « الميثولوجيا » Mythology ، وهي قصص وروايات عن الماضين وأخبارهم وأساطيرهم . وكان التاريخ يتضمن ، بهذه الصورة ، سلسلة من الحوادث المتعاقبة على شكل معلومات عامة يستفيد منها المؤرخون والادباء والسناسة ، وكانت المعلومات التاريخية تعتمد على ثقات غابتهم الإلمام بحوادث الماضي ، والاحصاء العددي لها . وبدأ تدوين هذه الحوادث ، وبخاصة البارزة منها ، مع ترتيبها ترتيبا زمنيا دون أن يحاول الإنسان المؤرخ فهم هذه الحوادث فهما عقليا عميقا والتعرف على مدى تأثيرها على بني الإنسان ومسيرته .

وانطلاقا من محاولة تتبع الجهد الإنساني في ظهور علم التاريخ ، وما بذل بمصدد تطور هذا العلم والرقى به ، يحاول الباحث القاء ضوء ، من خلال هذه الدراسة ، للتعرف على « علم التاريخ » كمحاولة لفهمه الفهم الصحيح ودراسته دراسة علمية تقود إلى نتائج يمكن الاستفادة منها في حاضرتنا ومستقبلنا .

نشأة التاريخ وتطوره

ظهر التاريخ أول الامر ، وكمرحلة أولى من مراحل نشأته وتطوره ، بصورة بدائية ، على شكل قصص وأخبار كان الانسان القديم يرويها لابنائهم ، الى جانب ما يرتبط بهذه القصص من أساطير ومعتقدات دينية . وظهرت أهمية الاحساس لدى الانسان ببعض الحوادث التي تواجهه ، فعبّر عنه بالرسم والتفحش على جدران الكهف . وبذلك يمكن القول بان التاريخ قد نشأ في مراحله الاولى على المستوى الفردي عن طريق الرواية ، وعن طريق الرسم ، وبذلك يكون التاريخ عبارة عن ممارسة فكرية عفوية وجدت بين الناس وانتقلت الى البناء عن طريق الابداء ، حتى اذا اتسعت المجتمعات وظهرت القرى انتقل التاريخ من المستوى الفردي الى المستوى الجماعي وأضحى عملية مستمرة يعبر عنها بالتسجيل المتوارث من جيل الى جيل .

ومن خلال تقدم المجتمعات وتطور الانسانية انتقل التاريخ الى التعبير عن سياسات ودول ، وتغير مفهومه المعبر عن الافراد الى مفهوم يعبر عن خبرة المجتمعات والظواهر العامة ، الى جانب الإبقاء على شخصية الفرد عندما يكون هذا الفرد ممن ينطبق عليهم تعبير (صانعو التاريخ) ، وهم أولئك الافراد الذين يؤدّون لمجتمعاتهم أعمالاً فذة في مجال السياسة والحروب والثورات . . الخ . وأصبح التاريخ مناداة علمية لا تقتصر دراستها على المؤرخين فقط بل شملت غيرهم ممن هواة وسياسيين وأدباء وباحثين اجتماعيين .

ويعتبر التاريخ قرين الحضارة ، فهو يبدأ مع الخطوات الحضارية الاولى للانسان الذي أخذ يسجل بشكل أو بآخر ما يعبر عن ماضيه ، ويستعيد من بين ذكرياته ما يصلح أن يكون نموذجاً لأعماله . وهذا العمل جهد انساني أدى في النهاية الى بداية العصر التاريخي (هـ) . فالتاريخ بدأ مع الكتابة . ومنذ اكتشاف الانسان الكتابة اتسع نطاق فكر الانسان كما ازدادت تجاربه عن طريق التأمل والتحكم فيما حوله وأخذ يواجه بيئته ويتفاعل معها من أجل الانتفاع بما تجود به عليه هذه البيئة من خيرات ، وللوقوف أمام تمرضها ودرء أخطارها . وبثوصل الانسان الى الكتابة استطاع أن يسجل ثمرات تجاربه ومعلوماته و فكره ليشكل هذا التسجيل احساساً جوهرياً في سيرة الانسان الحضارية . وأصبح ما دونه الانسان سجلاً حافلاً بالوان من الاحداث والافكار والاعمال .

كان لانسان الوطن العربي القديم الاسبقية المطلقة في هذا الاكتشاف العظيم ، ففي بلاد الرافدين اكتشف الكتابة التصويرية التي تطورت الى كتابة مسمارية ، اما في وادي النيل فقد استخدم الهيرغليفية ، كما استخدم انسان سورية مزيجاً من الكتابتين العراقية والمصرية . وارتبطت معرفة الكتابة ارتباطاً شديداً بالعقيدة الدينية وعبر عنها الانسان خير تعبير حيث ظهرت في كل ما حدث ويحدث له منسوبة الى الآلهة ، واصبح للمعبد مكانته الاولى في المجتمع يسير اقتصاده ويوجه سياساته ويعلم الحرب أو السلم ، وتكونت لهذا المعبد القاعات الضخمة منافساً بذلك السلطة المدنية المتمثلة بالملك أو الحاكم ، الذي سعى الى اضعاف قدسية خاصة على نفسه ، فأصبح الها مقدساً لدى قدماء المصريين ، أو حاكماً يستمد سلطته من الآلهة كما حصل في بلاد الرافدين .

وبذلك يكون التاريخ قد دخل مرحلة دينية . وسيطر الفكر الديني المتمزج بالاساطير على تفكير الانسان في منطقة الوطن العربي القديم ، فظهرت الملاحم والاساطير البابلية والفرعونية والكنعانية والفينيقية ، وكذلك ظهرت الحوليات الدينية العادية ومنها القوائم النذرية والقوائم التي تسجل أسماء كهنة وكاهنات المعبد وسجلات الصدقات والتذور . وهذه جميعها كتابات تعطينا صورة تتصل بالتاريخ في كثير من النواحي ، كما تعبر عن الوان من الفكر . غير انه لا يمكن الاطمئنان الى هذا الفكر من الناحية التاريخية لانها لم تكن تعبر عن الانسان وجهده وانما كانت تعبر عن الآلهة وعلاقتها بالانسان ، ومع ذلك يمكن أن نعتبرها ، الآن ، وثائق تاريخية تفيد الباحث في التعرف على تطور الفكر الديني وعلاقة الانسان بالآلهة ومزج الحقيقة بالأسطورة . وبمعنى آخر ، فان الانسان القديم لم يكن يعي شيئاً عن «فكرة التاريخ» ، كما أن الانسان الذي دون هذه الكتابات لم يكن صاحب «وعي تاريخي» أو مدركاً للزمن أو الحقيقة كما نفهم هذين التعبيرين الآن .

وعلى صعيد آخر ، فان للرواية الشفوية التي انتقلت عن طريق التواتر عبر القرون ، وحفظت لنا بعض الاخبار عن الماضي ، دورها في التعرف على أحوال العصور السابقة . وقد وجد المؤرخون في الرواية الشفوية مصدراً سهلاً وأيسر منالاً ، في التعرف على أحوال الغابرين ، وبخاصة اذا كانت كتاباتهم قد دونت أو نقشت بلغة لا يتقنها المؤرخ (٦) .

أما المرحلة الثانية لتطور علم التاريخ فإنها تتمثل في الكتابة عند الإغريق ،

حيث تتميز الكتابة عند مؤرخي الإغريق بأنها اتجهت اتجاهها عقليا ارتبط بالإنسان ونشاطاته المختلفة . ولم يخضع الفكر الإغريقي الإنسان للارادة الالهية ، ومع ذلك فإنه ظل محتفظا بالاساطير الدينية ومعبرا عنها ، وقد عرف كتاب الاسطورة بالنائرين الايونيين . وبذلك وضع المؤرخ الإغريقي التاريخ في اطاره المكاني واطاره الزمني مع الاستشهاد بالملاحم الإغريقية التي تعبر عن اوضاع سياسية واجتماعية واقتصادية . بمعنى أن النائر الايوني لم يكتف بالوثيقة المكتوبة او بالرواية الشفوية المتداولة ، بل درس العالم من حوله ليضع تاريخا يكون الاقرب الى الواقع الخالي من شوائب عناصر الاسطورة والمبالغة .

وتميزت كتابات المؤرخين الإغريق بالاسلوب العلمي الذي يتناول الحدث التاريخي بالتفصيل الدقيق . مع ابراز واضح للشخصيات التي كانت وراء الحدث . وخير ما يعبر عن هذا الاسلوب كتابات هيرودوت Herodotus (٤٨٤ - ٤٢٢ ق.م) والمؤرخ ثوكيديدس Thucydides (٤٧١ - ٤٠٠ ق.م) ، الذي اكد على استخدام الوثائق وضرورة الاعتماد عليها في البحث التاريخي ، وطبق هو نفسه هذا المنهج باخلاص في كتابه عن الحروب البلوبونيزية الذي اشار فيه الى انه يكتب من اجل الفائدة التي يمكن أن يحصل عليها من معرفة حقائق الماضي ، ومن ثم يضع مقاييس سليمة للأحداث المتشابهة والتي يمكن أن تقع مستقبلا وذلك وفقا وترتيباً على الطبيعة المشتركة بين البشر ، وهو بذلك يوضح لنا فوائد دراسة التاريخ وأهدافه والتي منها امكانية استنباط ما يشبه القوانين التاريخية .

ومن الكتاب الإغريق ، بوليبيوس Polybius (٢٠٣ - ١٢٠ ق.م) الذي اكد في آرائه على الهدف المادي للتاريخ ، وأشار على المؤرخين توخي الدقة العلمية في السعي نحو كشف الحقيقة المجردة والابتعاد عن الغيبيات . وهو بذلك يستند في كتاباته الى الحقائق ويبرز دور الإنسان الذي يصنع التاريخ (٧) . فالتاريخ عند بوليبيوس « يجب أن ينزه عن الأغراض التي تشوه الحقائق ، وإذا ما وقف الإنسان موقف المؤرخ فعليه أن يتخلى رأساً عن جميع الاعتبارات كحب الإنسان لصديقه وكرهه لعدوه وعليه في بعض الاحيان ألا يتورع عن مدح أعدائه وذم أصدقائه ، وكما أن الإنسان يفقد كل قيمته اذا انتزعت منه عيناه ، كذلك التاريخ يفقد كل أهميته اذا ما انتزعت منه الحقيقة ولا يبقى الا قصة لا قيمة لها » (٨) .

وفي نهاية العصر الاغريقي اتجه التفكير التاريخي الى أهمية التزام المؤرخ بوحدة موضوعية تربط بين مراحل التاريخ الزمنية ، وبذلك تميزت هذه الفترة بالعمومية في كتابة التاريخ التي تخطت المفهوم السابق المتمثل بتدوين التاريخ لمراحل متعددة . وقد بدأ هذا الاتجاه في اعقاب القرن الخامس قبل الميلاد ، حين ابتعد المؤرخ الاغريقي عن التقيد بالزمن وأصبح بإمكانه أن يكتب تاريخاً يمتاز بالوحدة الواضحة ، بصرف النظر عن مداها الزمني . مستعيناً بالمادة العلمية لمن سبقه من المؤرخين .

أما المرحلة الثالثة لتطور التاريخ فتتمثل عند الرومان ، حيث شهد التاريخ تطوراً أصيلاً ، فالى جانب الصيغة العمومية للتاريخ ، برز الاهتمام بالحقيقة التاريخية التي لا يرقى اليها الشك . وبذلك أصبح التاريخ لدى الرومان تاريخاً للعالم بأسره ، وذلك بعد أن أصبحت روما سيادة العالم ومجالاً للفخر والعظمة لدى الرومان الذين نظروا الى التاريخ على أنه دراسة اجتماعية تتناول تاريخ الانسان ممثلاً في الشعب الروماني ، كما نظروا في الكون واعتقدوا بوجود قوى إلهية مقدسة تعبر عن ارادة عليا وتدعم ارادة الانسان الحرة ولا تتدخل في مجرى التاريخ أو توجيهه توجيهاً جبرياً . فالإلهية الرومانية لم تكن أشخاصاً بل كانت قوى طبيعية ذات وظيفة معينة ، مع ميل فيها لكي تتكون من مجردات (٩) . ويعتبر هذا الاعتقاد امتداداً لما كان عليه الاغريق ، ومن هنا أضرت هذه النزعة بروح البحث العميق والنقد حيث أصبح للتاريخ قدسية التزم بها الكتاب والمؤرخون .

ويعتبر تيتوس ليفيوس من أبرز المؤرخين الرومان ، وقد اعتبره الغرب « شيخ مؤرخي روما » ، فقد كتب ليفيوس التاريخ ليدون الأعمال العظيمة ويسجل المآثر المفيدة التي حققها الشعب الروماني ، من أجل أن يضع حقائق التاريخ أمام القارئ ليأخذ منها الصالح ويتجنب المثل السيء (١٠) .

أما المرحلة الرابعة لتطور التاريخ فتتمثل في العصر المسيحي وهو العصر الذي حدث فيه تغير كبير في مفهوم الكتابة التاريخية حيث خضع هذا المفهوم لتكييف جديد نجم عن الانقلاب الذي جاء في ركاب التفكير المسيحي ، وهو الانقلاب الذي تمثل في ادخال فكرتين أساسيتين هما :

١ - فكرة التفاؤل بالطبيعة الانسانية .

٢ - فكرة وجود قيم أبدية خالدة تكمن وراء عملية التغيير التاريخي .
لقد بدلت المسيحية الفكر البشري تبديلاً بالغ العمق ، ومن ثم طرأ تغيير على العديد من مفاهيم المنهج التاريخي التي شاعت في العهد الاغريقي والروماني وبخاصة حين حملت المسيحية معها ثورة جديدة من القصص والاحداث والحكم والامثال الواردة في التوراة . وفتحت المسيحية آفاقاً جديدة للتاريخ على أيدي رجالها البارزين ومنهم أوغسطين St. Augustine (٣٥٤ - ٤٣٠ م) الذي أفسح المجال أمام تصور تاريخي جديد للكون يبدأ بالخلق كما جاء في التوراة وينتهي بيوم الحشر ، وبذلك يكون التاريخ هو تاريخ البشرية كلها . وأصبحت كتابة التاريخ تتميز بصفة العموم والشمول متضمنة أخبار الكنيسة وفكرة القدزية الموجهة لاحداث التاريخ ، وانصبب الاهتمام على حياة المسيح حيث جعلها المؤرخون محور الاحداث ، حتى ان اسيدور الاشيلي استحدث في القرن السابع الميلادي تاريخ ميلاد المسيح توفيقاً للاحداث التاريخية ، كما قسمت حياة المسيح الى حقبة وفترات لكل منها مميزات الخاصة بها .

أما المرحلة الخامسة فتتمثل في العصور الوسطى حيث اتسمت الكتابة التاريخية بسمات أدت الى بعدها عن مفاهيم وأفكار العهد المسيحي الاول . ويمكن ايجاز هذه السمات على النحو التالي :

- الرجوع الى الاسلوب الذي درج عليه المؤرخون بعد الاسكندر والمتمثل في الاعتماد على المصادر الوثائقية لاستنباط الحقائق .
- اتسمت الكتابة التاريخية بفكرة القومية والاعتزاز بها والصراع بين القوميات المختلفة .
- الاعتقاد بأن التاريخ يمضي بمشيئة الهية تنظم الاحداث كلها ، فاهمل العنصر البشري واختفى النقد والتحليل وتركز اهتمام المؤرخين في دراسة خصائص الذات العليا المقدسة وقرار المشيئة الالهية .
- ظهور التراجم التي تتناول سير القديسين لتكريمهم وتقديسهم ، مما نجم عنه ظهور نوع من الكتابة التاريخية التي تدون للأسر .
- بروز عدد كبير من المؤرخين من بين رجال الدين الذين استمروا يؤرخون

حتى القرن الخامس عشر ، حيث انتقلت مهمة التدوين الى رجال القانون الذين اعتمدوا على الوثائق الرسمية ، وخصوصا الصكوك والوصايا والعقود .

اما المرحلة السادسة من تطور التاريخ فتتمثل في العصر الاسلامي ، وهو العصر الذي ازدهرت فيه المعارف والعلوم ولعب فيه العرب دورا هاما في تطور مفهوم التاريخ وتقدم العلوم التاريخية ، فكان دورهم في عصورهم الذهبية يفوق بكثير دور الامم الاخرى . فعن طريق منهجية الحديث ادخلوا في التاريخ الاعتناء بالموضوعية والتأكد من صحة الاخبار المروية . فقد نبت التاريخ في تربة علم الحديث الذي يقوم على الدقة والتحري والضبط بالنسبة للحديث المروي ، وعلى نقد الرجال ، وهو علم الجرح والتعديل (١١) ، فيما يتصل برجال السند وهم قواعد الرواية وعمدها .

وحيث ان التحليل الدقيق لنشوء مدارس التاريخ الاسلامي مسألة دقيقة لا يمكن لهذا البحث ان يلم بها ، فاننا نستطيع القول بان التاريخ الاسلامي قد اتصف بصفات منها الاصاله والاستقلال ، اذ جاءت به حاجات المجتمع ، فجاء ملبيا لتلك الحاجات ومتصفا بخصائص المجتمع الاسلامي . ويتضح ذلك من توجيه المؤرخين منذ القرن الثاني للهجرة عنايتهم الكلية الى التاريخ العربي منذ ظهور الاسلام ، ذلك ان التاريخ الاسلامي دخل منذ ولادة الرسول (ص) في مرحلة حاسمة تستحق ان تتخذ منطلقا لبحوثهم . ويضاف الى ذلك ان المؤرخين المسلمين اعتبروا علم التاريخ متما للعلوم الدينية وخاصة علم التفسير ودراسة اسباب التنزيل ، وكذلك متطلبات النظامين المالي والقضائي ، وتشجيع الخلفاء ، والنزاع السياسي ، كل هذه العوامل مجتمعة جعلت للتاريخ عند المسلمين صفات خاصة ومميزات اقتضت على ماهية الكتابة التاريخية عند المسلمين ، وتفوقت بها على ما عند الشعوب الاخرى من مناهج ينظم بها المنهج التاريخي . ولهذا فان مجال التاريخ عند المسلمين واسع شاسع شمل السيرة والمغازي ، والطبقات ، وفتوح البلدان ، وتواريخ البلدان ، والتراجم والتواريخ العامة (١٢) .

لقد شكلت مقدمة ابن خلدون(*) منعرجا حاسما في كيفية فهم الانسان لتاريخه وتقييمه له وما يرجو من كشف لا عن ماضيه فحسب بل عن تطور الجنس الذي ينتمي اليه ومصيره . وبذلك فتح ابن خلدون في مقدمته ابواب الاجتماع والاقتصاد

(*) ابن خلدون (١٣٣٢ - ١٤٠٦ م) ، هو عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي ، من أبرز المؤرخين وعلماء الاجتماع ، اشتهر بكتابه « العبر وديوان المتدا والخبر في ايام العرب والعجم والبربر ومن عاصره من ذوي السلطان الاكبر » .

والمؤسسات وضروب الثقافات والعلوم أمام التاريخ . ويذكر ابن خلدون في مقدمته : « . . . حقيقة التاريخ انه خبر عن الاجتماع الانساني ، الذي هو عمران العالم ، وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الاحوال ، مثل التوحش والتأنيس والعصيان واصناف التغلبات للبشر بعضهم ببعض وما ينشأ عن ذلك من الدول ومراتبها وما ينتحله البشر بأعمالهم ومسايعهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع وسائر ما يحدث في ذلك العمران من الاحوال . . . » (١٢) . فموضوع التاريخ اذن لا ينحصر بما حدث من الفتوحات والحروب ، وما توالى من الدول والملوك في الازمنة الغابرة بل يشمل كل ما حدث من التحول في الحياة الاجتماعية على اختلاف أنواعها وفي المؤسسات الاجتماعية ، ذلك ان الاخبار المتعلقة بالاحوال الاقتصادية والصنائع والعلوم تدخل جميعها في نطاق موضوع التاريخ .

كما يقول ابن خلدون في مقدمته : « . . . فان فن التاريخ من الفنون التي تتداولها الامم والاجيال وتشهد اليه الركائب والرحال ، وتسمو الى معرفته السوقة والافغال ، وتتنافس فيه الملوك والاقبال ، ويتساوى في فهمه العلماء والجهال . . . وفي باطنه نظر وتحقيق وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق ، وعلم بكيفيات الوقائع واسبابها عميق ، فهو لذلك اصيل في الحكمة عريق . . . » (١٤) . ويريد ابن خلدون بذلك القول ان يجعل من التاريخ اداة كشف عن سير الانسان وتطوره الاجتماعي، وعن خروج هذا الانسان من مرحلة « التوحش » الى « التأنيس » بفضل الصراع من أجل تخطي العقبات التي تعترض السبيل نحو انسيية اكمل عن طريق الرقي المستمر الناشئ .

وبكل هذا يصبح التاريخ في رأي ابن خلدون استكشافا كليا لتطور الانسان ، وبالتالي سعيه للكشف عن العوامل الاساسية التي تؤثر في سير الوقائع التاريخية وتعمل على استنباط القوانين العامة التي تتطور بموجبها الامم والدول (١٥) ، وبالتالي توصل الانسان الى فهم وضعه في هذا الكون ومحاولة ادراك مصيره العاجل والاجل . وهذا يؤدي الى ان يتناول علم التاريخ امور التطبيق والاسلوب والنظرية ، وعدم الاكتفاء بالمنهج فقط .

اما المرحلة السابعة فنستطيع القول بأنها المرحلة التي استعاد بها الغرب دوره القديم وذلك خلال عصر النهضة الاوربية (١٦) ، حيث نلمس تطورا هاما في علم التاريخ، اذ اتسم التاريخ في هذه المرحلة بعدة مميزات تجمع بين المناهج السابقة ومفاهيم حديثة متطورة . ويمكن ايجاز هذه المميزات على النحو التالي :

— بدأ التاريخ يفقد طابعه الديني ، وسيطر المذهب العقلي على الكتابات التاريخية

فاستبعدت المعجزات والخرافات ، وأصبح المؤرخ يعتمد على النقد والتحليل ، ويهتم بالتحقيق السياسي أكثر من اهتمامه بالقاء المواقف ، كما برزت الدراسات الوثائقية بكل وضوح ، فقد استطاع الرهبان فلا ومايون بعد نجاحهما في دراسة الوثائق ان يفتحوا الباب على مضرايته أمام دراسة اصول علم الوثائق ، الذي عرف باسم الباليوجرافيا Paleography ، ووظيفته دراسة الخطوط والكتابات القديمة ، وتفرع عنه علم النقوش المعروف باسم الابيجرافيا Epigraphy ، ووظيفته دراسة النقوش والرسوم على الاحجار وغيرها ، وتفسيرها ، واستخراج المادة التاريخية منها ، ومن ثم ادى ذلك الى وجوب معرفة انواع المادة المستعملة في التدوين كالورق والرق والبردي ، والمواد الاخرى كالخشب والقماش والزجاج والمعادن وغيرها ، وقد ارتبطت حركة البحث عن الوثائق والعناية بها في أوروبا بنمو الشعور القومي (١٧) ، كما ادى الاهتمام بالبحث عن الماضي الى ظهور علم الآثار Archaeology ، ووظيفته دراسة التركة الأثرية للانسان عبر العصور الماضية ، وما تمثله هذه التركة من ابنية وأشياء مصنعة او أدوات او نقش ، وهي جميعها تعكس حياة الانسان اليومية الى جانب ما تخمله من فكر انساني اعتنقه الانسان ومارسه عبر مختلف العصور ، وبدرجات متفاوتة ، خلال تطوره الاقتصادي الى الاجتماعي والسياسي والديني .

٢ - تركز اهتمام التاريخ حول الدولة بوصفها المحور الرئيسي الذي ينبغي ان تدور حوله الاحداث ، وابتعدت الكتابات التاريخية بالتالي عن دراسة الكونيات . واستعان حكام الدول بالادباء لتدوين تاريخ دولهم ، فبرز الاسلوب الادبي في الكتابات التاريخية ، ولا سيما في ايطاليا التي سبقت الدول الاخرى الى عصر النهضة .

٣ - أهمل المؤرخون الشعب والجمهير كموضوع حقيقي للتاريخ ، وتركز اهتمامهم على بلاط الملوك والامراء والحكام وعظماء الرجال ، وأصبح المؤرخون في الصفوف الاولى من رجال الدولة ، ومن هذه الامثلة فولتير في فرنسا ، وكلاريدون بانكلترا .

ويلاحظ الباحث ان علم التاريخ قد خطا خطوات واسعة على امتداد هذه المرحلة ، من عصر النهضة حتى وصل الى صورته الحالية في القرن العشرين .

وإذا انتقلنا الى المرحلة الثامنة من تطور مفهوم التاريخ ، وهي المتمثلة في

عصرنا الحالي ، نجد أن علم التاريخ في العصر الحديث قد تميز باتصال المؤرخ اتصالا عفويا بالجمهور . ويمكن تتبع هذا التطور على النحو التالي :

٢ - ظهور حركة « الاستنارة » أو « التنوير » في التاريخ The Enlightenment ونهضة البحث التاريخي خلال القرن الثامن عشر ، وقاد هذه الحركة أو المدرسة الجديدة في التفكير التاريخي فولتير ، وهيوم (١٨) . ويقصد بالاستنارة تلك الجهود التي اتسمت بها مقدمات القرن الثامن عشر والتي استهدفت تطبيق الثقافة العلمانية في كل ميادين الحياة الانسانية والتفكير ، وهي في واقعها ثورة على الدين الذي كان يعتبر قيذا على النشاط الانساني ، فهي جهاد ضد سيطرته وسلطانه ، وغايتها تحرير الانسان من كل قيد على فكره وتصرفاته . ويمكن ايجاز أهم مظاهر هذه المرحلة على النحو التالي :

- الالتزام بفكرة البحث التاريخي ، الذي أصبح مدخلا قويا للتاريخ العلمي .

- ظهور جماعة اليسوعيين في بلجيكا التي سعت الى تأريخ حياة القديسين على حقيقتها وتقويم الاساطير من خلال نقد وتحليل الوثائق والاصول . وقد شجع هذا الاتجاه على بروز جماعة «الباحثين» الذين وجهوا كل اهتماماتهم الى نقد الوثائق بحيث أصبح هذا النقد فنا له اصول وقواعد .

- انتشار النزعة العلمية في التأريخ في فرنسا وغيرها مما شجع الباحثين على زيادة اهتماماتهم بالوثائق وحفظها في أماكن خاصة في معظم أقطار أوروبا .

ب - ظهور كتاب ديكارت Discours de la Methode الذي أصبح منهجه قاعدة للباحثين ، وشجع المؤرخين بالتالي على استبعاد كل شواهد التاريخ القائمة على أساس العقيدة وحدها ، وأصبح الشك هو الأساس العام للدراسة والسبيل الوحيد للوصول الى المعرفة .

ومن مميزات هذه المرحلة أن أصبح المؤرخ يهتم بالاحداث من خلال الوثائق والظروف المحيطة بعد مناقشتها ونقدها ثم عرض نتائجها في أسلوب أدبي .

ج - ومنذ أوائل القرن الثامن عشر أخذ التاريخ يستقر على قواعد وأصول فنية علمية خرجت به - شيئا فشيئا - من مجال الادب والفلسفة والتأملات وأساطير القديسين ، ومدائح الملوك الى أرض العلم الصلبة ، وولد علم التاريخ في الغرب .

وقد ارتبط مولد علم التاريخ في الغرب بأسماء مشهورة منها : دوشن Duchesne الذي كتب تاريخا للكنيسة الكاثوليكية ، وبالوز Baluze ومابيلون Mabillon ومونفوكون Montfaucon . أما ادوارد جيبون Edward Gibbon ١٧٣٧-١٧٩٤ فيعتبر من أعظم المؤرخين وأساتذة علم التاريخ على مر العصور ، ومن أشهر مؤلفاته كتابه عن « تاريخ سقوط الدولة الرومانية » ، وقد عاصر فولتير ، ومونتسكيو (١٩) وجان جاك روسو (٢٠) وغيرهم من اعلام ذلك العصر ، ويرى العديد من المؤرخين أن جيبون صاحب مدرسة في التاريخ مثل رانكه ، وأنه ارتفع في التاريخ الى مستوى لم يعرفه الغرب من قبل . ومما هو جدير بالذكر أنه من المؤرخين الغربيين القلائل الذين قدروا التاريخ الاسلامي .

ومن اعلام المؤرخين في عصر التنوير آدم سميث ١٧٢٣ - ١٧٩٠ الذي يعتبر مؤسساً لعلم الاقتصاد بعد نشره كتابه المشهور « ثروة الامم Wealth of Nations » وهو كتاب تاريخي لفت فيه الانظار الى أهمية العوامل الاقتصادية في سير التاريخ ، حيث كشف عن أهمية العامل الاقتصادي في بناء الدول والجماعات ، وقد سبق كارل ماركس في هذا الاتجاه .

ان مؤرخي القرن الثامن عشر ، وعلى رأسهم جيبون (١٧٣٧ - ١٧٩٤ م) قد لفتوا أنظار الناس الى أهمية دراسة التاريخ دراسة علمية موضحين قيمته الكبرى كدراسة انسانية أصيلة ، وبالرغم من ذلك فإنهم لم يصلوا الى تثبيت أقدام التاريخ كعلم له أصول ومناهج بحث ، حتى أن جيبون نفسه كان يعتقد أن التاريخ ضرب من الادب ، وقال عنه انه . . « أشهر ضروب الادب The most popular of all Forms of Literature » وهي عبارة أنكرها عليه مؤرخو القرن التاسع عشر انكاراً شديداً . كما يؤخذ على مؤرخي القرن الثامن عشر عدم اهتمامهم بتطوير الانسان ومجتمعه ، وظلوا ينظرون الى انسان عصرهم وكأنه نفس انسان العصور القديمة دون التعرف على تطور عواطفه أو سلوكه . ولهذا فإنهم لم يستطيعوا أن يصلوا بالتاريخ الى مرتبة العلوم التي تدرس في الجامعات .

اما في القرن التاسع عشر فبدأ المؤرخ اتصاله الجماهيري ، فلم يعد يركز على الدولة أو على طائفة معينة . كما اتصف البحث التاريخي بالموضوعية ، فحاول المؤرخ الوصول الى النتائج والحقائق بأسلوب علمي مبتعداً عن الروايات الفردية أو المثيرة ، أو الاكتفاء بسرد الوقائع ، وقد أدى ذلك الى أن يصبح التاريخ دراسة انسانية تتصل بالحياة البشرية عموماً في شتى مجالاتها وأنشطتها من خلال تناول الحياة اليومية للمجتمعات .

كما حدث تغيير حاسم على وضع التاريخ والنظرة اليه في هذا القرن الذي تميز بتزاحم الاحداث الضخمة التي احدثت ثورة حقيقية في كل ميادين العلوم تقريبا ، فانتقل التاريخ من نطاق الهوايات او الآداب الى نطاق العلوم ذات الاصول والمناهج . وتمثل ثورة التاريخ في القرن التاسع عشر في التطور الشامل في علم التاريخ التي تزعمها المؤرخون الالمان ، وتعرف بمدرسة برلين ، وقائدها ليوبولدفون رانكه (٢١) ، رغم انه سبقهم مؤرخون اوروبيون واشتهر منهم جيماباتيستا فيكو Gimabathista Vico ١٦٦٨ - ١٧٧٤ ، وهو من مشاهير عصر التنوير . وهو اول من نظر من علماء الغرب الى التاريخ العالمي نظرة فلسفية ، كما فعل ابن خلدون قبله بنحو ثلاثة قرون ، وقد قسم فيكو التاريخ الى حقبة ثلاث :

(١) **حقبة آلهية** : اي العصر الذي كان الناس فيه يردون كل الحوادث الى صنع الآلهة .

(٢) **حقبة بطولية** : كان التاريخ فيها سردا لاعمال عظماء التاريخ .

(٣) **حقبة انسانية** : وقد انتبه المؤرخون فيها الى ان التاريخ الحقيقي هو الذي تصنعه الجماهير والشعوب (٢٢) .

ويعتبر المؤرخ يوهان جوتفريد هيردر Herder ١٧٤٤ - ١٨٠٣ مؤسس المدرسة الالمانية في علم التاريخ، وكان اديبا ولاهوتيا ، ومن أهم كتبه التاريخية « آراء في فلسفة تاريخ البشر Ideen zur philosophie der egeschichte der menschheit » ثم رسالته المسماة :

« Auch eine philosophie der geschichte zur bildung der menschheit »

وكذلك فلسفة التاريخ في بناء الانسانية (٢٣) .

اما في **القرن العشرين** فقد تقدمت المدارس التاريخية ، وتطورت مناهجها . ويعتبر هذا القرن ، الذي شهد التفجر الثقافي والتطور الكبير في جميع مجالات العلوم ، احد المعالم الشهيرة في تطور التاريخ . ففي هذه المرحلة تبلور المفهوم العلمي للتاريخ ، وظهرت القوانين التاريخية ، كما اكتمل منهج البحث التاريخي بجميع عناصره ، منها بذلك الجدل الذي احتدم طويلا في القارة الاوربية ، وبخاصة في المانيا وانجلترا ، بين الفلاسفة والمؤرخين من مؤيدين ومعارضين للمبدأ القائل بأن « التاريخ علم » .

انتقل علم التاريخ في هذه المرحلة من فرع ثانوي من المعرفة يمارسه بعض الكتاب والسياسيين كوسيلة للتقرب الى الله برواية اخبار الصالحين او التزلف الى الملوك

والزعماء بكتابة تراجمهم ، الى علم مستقل له أصوله ومنهجه وعلماءه ومختصوه ، كأحد أسس المعرفة الانسانية . كما انبثقت عنه علوم أخرى مكمله ، كالآثار ، والخطوط والكتابات القديمة ، وعلم النقوش ، وعلم الوثائق والمحفوظات ، وغيرها من العلوم التي احتلت مكانة خاصة بين العلوم الاخرى ، واصبح علم التاريخ يستعين بأحدث اكتشافات الكيمياء والفيزياء والجيولوجيا ، كما انه في سبيل استخدام الاجهزة والعقول الالكترونية كي يمتد أكثر فأكثر في جميع مجالات المعرفة الانسانية .

ويعتبر كروتشه (٢٤) وكولنجود (٢٥) ، وتوينبي ، وشبنجلر ، وماركس ، وهنري بيرين Henri Pirenne ١٨٦٢ - ١٩٣٥ ، من أشهر فلاسفة التاريخ في عصرنا ، فقد وصل التاريخ على أيديهم الى مرتبة العلوم ذات الوظيفة والشخصية المستقلتين ، أي ان التاريخ علم بالمنهج ، تنطبق على دراسته مناهج البحث العلمي من حيث استقصاء المادة ، ودراستها وتحليلها تحليلًا دقيقًا قبل استخلاص الحقائق التاريخية . وعندما قال : ب. بيوري B. Bury « التاريخ علم ، لا أكثر ولا أقل History is a science, no more, no Less » فتح باب النقاش واسعا حول هذا الموضوع ، فقال بعض المؤرخين ان التاريخ لا يسير على قوانين ولكنه يسير على منطق ، فلكل حادث اسبابه وتطورات ونتائج المنطقية . وهذا يوحي بأنه ليس من غاية التاريخ تجريد نواميس Nomologique (قوانين) ، أي أنه ليس علما تجريبيًا ، كما يعني أن التاريخ لا تكرر فيه لانه علم الانسان قبل كل شيء وهو حركة مستمرة ، ولا يسمح بأن تكون له قواعد وقوانين مجردة كقوانين العلوم .

ولا يتسع المجال هنا لمناقشة جميع الآراء حول علمية التاريخ (٢٦) ، وانما يمكن الاكتفاء بالمحصلة النهائية لهذا النقاش الذي يقول : ان التاريخ وان لم يكن من العلوم الناموسية ، فليس معنى ذلك حتما انه ليس بعلم ، فهو علم بهدفه ، وهو ككل العلوم يسعى وراء الحقيقة ، وهو علم بمنهجه الذي لم يفتأ على مر العصور يتطور ويزداد احكاما . ومهما يكن الامر ، فانه ليس من الضروري كي يكون العلم علما أن يميظ اللثام عن كل خفية ودقيقة ، بل يكفي أن يبلغ الحقيقة بقدر الامكان .

اما عن ماهية القوانين التاريخية فان ماركس يرى أن التاريخ تحكمه قوانين يدركها العقل الانساني ، وهذه القوانين حتمية ، أي أنها تفرض نفسها لانها ناتجة عن حركة التاريخ نفسه ، واذا أدرك الانسان هذه القوانين ، استطاع أن يقرر صورة مستقبل الجماعة الانسانية ، وان هذه القوانين ليست مثل قوانين العلوم البحتة ، وانما هي حقائق متعلقة بطبيعة العمل والانتاج ، وطريقة توزيع الثروة بين المواطنين ، فالثروة تنتج عن العمل ، والعمل يقوم به من يعملون بأيديهم أو بعلمهم وموابهم ، وان ثمرته لا بد أن تعود حتما على أولئك العاملين انفسهم .

ويقول ماركس ان الاحوال أو الاوضاع الاقتصادية لاي جماعة هي التي تحدد صورة نظامها وكل مظاهر حضارتها ، واذا أردنا أن نفهم نظام أي مجتمع ونطاقه السياسي ، أو حتى طبيعة عقيدته الدينية وانتاجه الفني والفكري ، فلننظر أولا الى نظامه الاقتصادي ، وأساس النظام الاقتصادي هو الانتاج ونوعه وأساليبه وطريقة استعماله أو توزيع ثمراته . والانتاج نفسه ، سواء أكان يدويا بدائيا أم آليا متطورا ، لا يظل دائما على مستوى واحد وأسلوب واحد ، فهو يتطور دائما ، أو على الأقل هو متطور باستمرار في أدواته وصورته وطريقة توزيعه . وهذا التطور للانتاج ، أي الوضع الاقتصادي ، مستمر مهما كان بطيئا ، وتطوره هذا هو الذي ينتج عنه تطور المجتمع الذي يقوم عليه ، وكل نظمته وقوانينه ، وما يقوم على ذلك كله من افكار وعقائد وآداب وفنون ، وكل ما يسميه الماركسيون المظهر الخارجي للمجتمع .

كما تتميز هذه المرحلة بتبلور فكرة « التاريخ الكلي » ، الذي يدعو الى دراسة العصر من كل نواحيه : السياسية ، والاجتماعية ، والاقتصادية والحضارية لتفطية جميع مجالاته التاريخية . ومن أبرز المؤرخين في هذا المجال المؤرخ هنري بيريـنـ George Lefebore Henri Pirenne ١٨٦٢ - ١٩٣٥ ، والمؤرخ جورج ليفبور ١٨٧٤ - ١٩٥٩ ، فقد عني الاول بالناحية الاقتصادية كجزء من الاطار العام للحقائق التاريخية ، ويعتبر من أفضل من طبق « التاريخ الكلي » . أما الثاني فقد سار على المنهج الدقيق الذي يلتزم الاصول بكل دقة ، وقد قال بأنه لا تاريخ بلا وثائق .

أما توينبي (٢٧) فهو يحتل مكانة بارزة بين مؤرخي هذا العصر ، فقد اثبت حقيقة استمرار التاريخ ، وان الماضي والحاضر يربطهما بالفعل رباط حقيقي لا شك فيه . كما انه يعتقد بدراسة عامة شاملة وصل كل منها الى قمته في صورة حضارية قائمة بذاتها ، فالتاريخ الاسلامي في نظره ، تجربة واحدة خلاصتها هي الحضارة الاسلامية ، فالحضارة لا التاريخ القومي هي وحدة الدراسة التاريخية (٢٨) .

لقد كان للعديد من المؤرخين الفضل في تطور التاريخ كعلم انساني يدرس الانسان في حاضره ، ويمتد لتجاربه في الماضي ، في ظل الزمان والمكان التي تمت فيه ، والقاء الاضواء عليه ، لعل معرفتنا بالماضي تمكننا من فهم الحاضر ، ومن ثم النظر للمستقبل من خلال دراسة موضوعية تساعدنا على التخطيط لمستقبل أفضل . فقد كان لأولئك المؤرخين الفضل الاكبر في جعل التاريخ علما مستقل الشخصية ، واضح المنهج والطريقة ، واثبتوا أن التاريخ هو من الدراسات الاساسية في المعرفة الانسانية . وابعدها اثرا في تكوين العقل الواعي المدرك لحقائق الحياة .

كان للنهضة الاوربية اثر كبير في تطور جميع العلوم ، وقد حظي التاريخ بنصيب وافر من هذا التطور ، حيث امتزج التفكير العلمي بدراسة التاريخ ، مما أدى الى تطور مفهومه واسلوبه ومنهجه ، فاحتل في القرن الماضي مكانة مرموقة بين العلوم الاخرى ، وأصبح العصر الحالي يتميز بعصر العلوم وبالعقلية التاريخية . لقد بذل المؤرخون جهدا شاقا في نقل التاريخ من حكايات واساطير الى دراسات وحركات فكرية ، فالتاريخ بمفهومه الحديث لا يقتصر على اخبار واساطير الماضين ، بل هو يدرس التجربة الانسانية ، او جوانب منها ، ولا يسمى الى فهم الانسان وطبيعة الحياة على وجه الارض . والانسان كل لا نفهمه ما لم نعتن بحياته الاقتصادية والاجتماعية والتشريعية والسياسية والعقائدية والادبية والفنية والعقلية ، عامة ، وغير ذلك مما يكونه ويكون بيئته وماهيته . فبيئة الانسان هي جميع ما يحيط به ويؤثر فيه . وعلى الرغم من ان لكل كائن بيئته ، الا ان بيئة الانسان اكثر اتساعا من بيئة النبات والحيوان . فقد استطاع الانسان بذكائه وعلمه ان يوسع دائرة بيئته بفضل ما استخدمه من اساليب المواصلات الحديثة وتغلبه على ظروف البيئات التي لاتناسبه ، فقد سكن الارض من مناطقها الاستوائية الحارة الى قطبيها المتجمدين ، وخرج من نطاق الارض ليصل الى الكواكب الاخرى ، ويحاول الانتفاع بها الى اقصى حد ممكن .

حققت المعارف الانسانية في العصر الحالي ما يملكن ان نسميه ثورة في علم التاريخ ، تناولت مادته ومناهجه واهدافه ، وتبعها اتساع في فروع التاريخ ، فشملت تواريخ العلوم ، والفكر ، والفنون ، والتطورات الاجتماعية ، والاقتصادية ، والتواريخ المقارنة وغيرها . كما ان التاريخ لم يعد ملكا للشعوب الحضارية القديمة فقد دخلت فيه جميع الشعوب . واستعان منهجة بالعديد من العلوم المساعدة ، منها الجغرافية ، والجيولوجيا ، والفيزياء وبمعطيات العلوم والبحوث الجديدة ، ومعطيات العلوم التقنية ، واتخذ من الشعوب والبيئة والمجالات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في حياة الانسان منطلقا وموضوعا .

ان حركة التجديد التي شملت مفهوم التاريخ ومناهجه قد اخرجته من المرويات واساطير الاولين ، واستخذيته كوسيلة للوعظ والتوجيه الفكري والسياسي ، وأدخلت عليه مناهج البحث والاستقصاء ، ومدت نطاقه من الماضي ليشمل الحاضر والمستقبل ، وجعلت منه دراسات فكرية واجتماعية واقتصادية وسياسية . ولم تعد اهدافه تنحصر في العظة والعبرة ، انما اتسع ليشمل دراسة تطور حياة الانسان بمعناها الشامل ، والسجل الطويل للمجتمع الانساني للاستفادة من تجارب الانسان في الماضي ونتائجها في الحاضر ، ومن ثم المساعدة في التخطيط لمستقبل افضل .

ويعتبر التاريخ حوارا بين الماضي والحاضر ، حوارا بين الاجيال ، وحوارا بين الانسان والزمان ، وحوارا بين المؤرخ والقارئ . فالتاريخ بلا شك هو التجربة المدونة للجنس البشري ، والانسان يستطيع ان يستفيد من التجربة في اي ميدان من ميادين المعرفة .

فالتاريخ يدون حياة الامم وتجاربها وخبراتها التي هي ثمرة التفاعل بين الانسان وبيئته ، فهو يحققها ويوضح الترابط والعلاقات بينها ، كما يبرز التطور الذي طرأ على حياة الامم من حيث مسبباته ووسائله ، والوقوف على الاسس التي تحكم في تلك الظروف ويمهد السبيل للتغيرات المرتقبة ، كما ينشد معرفة الظروف التي تؤثر في الاتجاهات المختلفة التي تظهر في اوقات شتى . وهذا يتطلب دراسة ومتابعة التفاعل الدائم بين المجتمع والثقافة والمصادر الطبيعية ، والمجتمع بما يتضمنه من بشر في اطار من علاقات قومية واجتماعية واقتصادية وسياسية وروحية ، والثقافة التي تتمثل في الجانب الذي صنعه الانسان من بيئته سواء اكان معنويا أم ماديا ، ثم المصادر الطبيعية التي تمثل جميع الظروف في البيئة من ارض وبحار وماء وشمس وهواء وحيوانات ونبات وثروات طبيعية . فالانسان في تفاعل مستمر مع بيئته في جميع مكوناتها المادية والاجتماعية أو العقلية أو النفسية التي تحيط به وتؤثر فيه ويتأثر بها ، فهو جزء منها ، وعليها تتوقف حياته ، فهو يستمد منها جميع مقوماته . ان التفاعل بين الانسان وبيئته مستمر لا ينتهي الا بنهاية حياته ، بل انه يستمر من الناحية المادية بعد نهاية حياته ولكنه لا يدخل في اطار خبرته (٢٩) ويقول سانتيا : « يجب الا نخلط بين معنيين للتاريخ : اولهما سياق الحوادث كما تقع فعلا وثانيهما مشهد هذه الاحداث الذي يلتقطه المؤرخ ويضمنه كتابه » (٣٠) . وبعبارة اخرى ينبغي التمييز بين « التاريخ History » كمسيرة للانسانية ، و « علم التاريخ Historiography » كفاعلية انسانية . فعندما نكتب التاريخ ، فاننا نسجل تجربة الانسانية ، وهذه التجربة لا زالت سائرة متصلة الحلقات ، والتاريخ على هذا يشمل الماضي والحاضر والمستقبل ، ونحن عندما ندرس الماضي فاننا في نفس الوقت ندرس الحاضر والمستقبل ، فالتاريخ هو سجل الماضي ، وصورة الحاضر ، والمرشد الى القد .

والتاريخ بمفهومه الحديث يكتبه اولئك الذين يعتقدون انه ليس قسما من « العلوم الادبية » ، وانه ليس مجرد قصة طريفة مفيدة مسلية ، بل هو « فرع من العلوم » . وهذا العلم كغيره من العلوم الحديثة ، هو نتاج نهضة القرن التاسع عشر الى حد كبير . فالتاريخ ليس احداثا تعبر الزمن ، ولكنه ممارسة فكرية وجهد

تكويني يدون حياة الامم وتجاربها وخبراتها ويحققها ويوضح الترابط والعلاقات بينها .

فمهوم التاريخ قد تطور في وقتنا الحاضر تطورا كبيرا ، فأصبح علما له شخصية مميزة وغايات يسعى اليها ، وله مناهج البحث الخاصة به ، ويحتل مكانة مميزة بين العلوم الانسانية ، فهو المرأة التي تعكس شخصيات الامم والاسس التي يقوم عليها حاضرها ومستقبلها . وهو مجموعة الاحداث التي وقعت في الماضي وظروفها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، والتي نحصد نتائجها في الحاضر ، ثم التنبؤ على هدى ذلك وفي ضوءه بما سوف يقع مستقبلا .

ومتى ما استقر الرأي على ان التاريخ هو علم له شخصية مميزة وغايات يسعى اليها فانه لا بد ان يكون لهذا التاريخ بناء منطقي ليشمل عالم الانسان . لذا فقد ارتبطت كل نظرية في التاريخ بنظرية الانسان والزمان ، فالانسان هو العنصر الاساسي في حركة التطور الشامل وما يجري من حوادث لن يكون لها من قيمة ما لم تتفاعل مع الفكر الانساني وتؤثر في وضع الانسان وتوجه مصيره ، أما الزمان فهو تلك المرحلة التي يمر بها الانسان فاعلا ومتفاعلا ، وبذلك أصبح للتاريخ سبل متشعبة ومسارات متفاوتة ومتى أصبح عمل الباحث الربط بين التأثير والتأثر وبين الاسباب والنتائج فان التاريخ يبرز لنا خبرات انسانية متعددة ، فاكساب الخبرة بحد ذاتها ، يتوقف على عدد من العوامل منها ذكاء الانسان وقدرته على ادراك العلاقات ، أسلوب تفكيره ، شدة انفعالاته ، قوة دوافعه ... مضافا الى ذلك كله تجاربه السابقة « المكتسبة » والظروف النفسية والاجتماعية المحيطة به .

مسارات التاريخ ومحاوره الرئيسية :

ان حركة التاريخ مستمرة ، وهي في تغير دائم ، سواء في حجمها او شكلها ، او آثارها ، او تأثيراتها ، او في زمانها ، كما أنها متعددة الخطوط والاتجاهات والاعماق، ويتفاعل العديد من العوامل في صياغتها . فهل هذه الحركة تسير اتفاقا في الكون ؟ وهل لها وتيرة واحدة ؟ وهل لها فلكها المحدود ؟ وما دور الانسان والزمان في المسيرة التاريخية ؟ ومن يوجه هذه المسيرة ؟ هل هي الصدفة ؟ أم جدلية المتناقضات ؟ أم المثالية ؟ أم المادية ؟ أم الميتافيزيكية ؟ أم التحدي والاستجابة ؟ أم الهزات النفسية ؟

ان الاجابة على هذه الاسئلة تشكل جوهر الفلسفة التاريخية وقد حاول بعض المؤرخين تحديد فلسفة التاريخ في معان رئيسة ثلاث : اولها انها تعنى بالنظريات العالية المستوى الخاصة بالتيارات التحتية ، أو القوى الاساسية للتاريخ باعتباره

حقيقة موضوعية (هي الماضي) ، وثانيها النظرة العامة الانسانية والمفاهيم الاساسية ايضا التي يأتي بها المؤرخ ، او تأتي بها مدرسة من المؤرخين متعلقة بالمشاكل التاريخية التي يعالجونها متضمنة النظريات الخاصة بتعليل الحوادث او مفهوم التقدم وما الى ذلك ، وثالثها انها تستعمل مرادفا على وجه التقريب للمنهج التاريخي Historical Methodology اي العملية الفعلية التي يسلك المؤرخ شعباها .

هذه هي المفاهيم الرئيسة او الافكار الرئيسة التي تناولها كبار المؤرخين والفلاسفة على مدى قرون طويلة تبلورت في القرن الاخير في مدارس متميزة واتجاهات فلسفية مختلفة . وبعبارة اخرى ، يمكن القول بأن أصل فلسفة التاريخ ترجع الى كيفية تفسير الاحداث التاريخية ، وعلاقة ذلك بالكون ، وكيفية التوصل الى القوانين التي تحكم تلك الاحداث ودور الانسان في كل ذلك .

وفي ضوء ما سبق يمكن ايجاز التطور الكبير الذي حدث في مفهوم التاريخ واسلوبه ومنهجه بمراحل حاسمة ثلاث ، اعتبرها البعض ثورة في علم التاريخ : ابتدأت المرحلة الاولى مع بداية العصر الاغريقي حوالي القرن الخامس قبل الميلاد ، حيث حدث تغير كبير في مفهوم علم التاريخ ، وظهرت الفكرة التي تنادي بأن التاريخ علم كسائر العلوم ، او ضرب من ضروب البحث العلمي بعد أن كان عبارة عن قصص واساطير ومعتقدات دينية ، ولقد استمر هذا الاتجاه في العصرين الاغريقي والروماني مبتعدا عن قيود الاساطير الدينية ، فكان بمثابة « ثورة » تاريخية ، في مفهومه وكتابته ، والاعتماد على الوثائق في كتابة التاريخ وتدوين الاحداث .

اما المرحلة الثانية فقد حدثت في القرنين الرابع والخامس الميلاديين ، حيث خضعت فكرة التاريخ لمفهوم جديد نتيجة للانقلاب الكبير في مفهوم التاريخ الذي جاد في التفكير المسيحي .

وقد حدثت المرحلة الثالثة في عصر النهضة الاوربية واستمرت في مفهومه واسلوبه ومنهجه حتى اكتملت الصورة العلمية للتاريخ واصبح له مناهج بحثه الخاصة في العصر الحالي ، الذي تميز بالانفجار الثقافي وتطور العلوم في جميع مجالاتها .

وكيفما كان الحال فاننا سنفرد افكارا تلقي الضوء على منجزات ابرز المؤرخين والفلاسفة في مجال التاريخ ، وتطور اسلوبه ومنهجه ومن ثم ظهور المدارس التاريخية والفلسفية المختلفة في العصر الحديث .

الإنسان وفلسفة التاريخ (٢١) :

ان معظم اجتهادات المذاهب والفلسفات التاريخية لم تحدد الاجابة الكاملة عن العلاقة بين الالهة وبين الطبيعة ، بما فيها القوى المادية والانسان ، في مسيرة التاريخ واقامة الحضارات . وبعبارة أخرى تحديد ماهية العلاقة بين الالهة والطبيعة في صنع التاريخ .

فالتاريخ هو علم الانسان في حياته وأحواله الدائمة التغير ، فهو ينطلق من الماضي ، ويمتد في الحاضر ، ويرخي سدوله على المستقبل ، فهو علم تطور الانسان بلا انقطاع على مدى الزمان ، والتاريخ ليس أحداثا تعبر الزمن ، ولكنه ممارسة فكرية وجهد تكويني يتميز بميكانيكية العملية التاريخية التي تتصف بالشمول والاستمرارية في اطار المعرفة التاريخية وطبيعتها وحدودها .

ولكي نفهم الانسان يجب الاهتمام بحياته الاقتصادية والاجتماعية والتشريعية والسياسية والعقائدية والادبية والفنية والعقلية عامة ، وغير ذلك مما يكونه ويكون بيئته وماهيته ، فالانسان هو محور فلسفة التاريخ ، وهو ليس مجرد مركب معقد من الكهربات (الالكترونات) والبرقونات ، أو جعبة نفسية مملوءة بالدوافع النفسية . ولكنه مخلوق معقد الى حد عجيب ولا يمكن تحليله تحليلا عمليا . لقد وجد الانسان في بيئة لا تفي بحاجاته جميعا مما حتم عليه العمل المستمر لتحسين أحواله . ويرى العديد من الفلاسفة ان الرغبة في تحقيق هذا الهدف هي غاية كل الوجود الانساني ، وغاية سعي البشر منذ القدم . ويرى محمد اقبال (٢٢) أن مهمة الانسان ، أن يسهم في اعمق مطامح الكون من حوله ، وأن يقرر شكل مصيره هو ومصير الكون ، تارة بتكييف نفسه حسب قوة الكون ، وتارة ببذل كل طاقته لصياغة قوى الكون بالشكل الذي يتفق وأهدافه (اي أهداف الانسان) وغاياته .

ان الذات الانسانية قد أوجدت نوعا من التوتر في تفاعلها مع المحيط المادي ، الذي كان ولا يزال يسيطر على فكر الانسان وارادته ، وجعل كثيرا من المفكرين يعتقدون أن البيئات المادية هي التي تفرض شكل مصير بني الانسان ، وممن تزعموا هذا الاتجاه : بكل راتسل Buchele Ratzel ، وكوميت (٢٣) Comete ، وسبنسر Spencer ، والان دريبر Alan Draper ، وأخذوا يبحثون عن القوانين التي تحكم هذا الاتجاه بعيدا عن دور العنصر البشري في ذلك . وقد أدى تأكيدهم على العالم المادي الى تجريد التاريخ من صفته البشرية . وهذه النظرية تستند الى حد كبير على النظرة الجغرافية للتاريخ التي ترى أن كل الاعمال التي يقوم بها الانسان ، أفرادا

أو جماعات ، طبقات أو شعوبا إنما يقومون بها دفاعا عن سعادتهم ، أي عن حياتهم ، وحماية لانفسهم من الالم ، ولأجل بلوغ هذه الغاية لابد للإنسانية من أن تبذل الكثير من الجهد ، وهذا يدفعها الى العمل فتتقهر العالم المادي ، وبذلك تخطو خطوة الى الامام في طريق التقدم . ويرى محمد اقبال انه ينبغي في نفس الوقت ان يقترن هذا التقدم بسيطرة المبادئ الاخلاقية على قوى الطبيعة . . . والتاريخ مليء بالامثلة التي تشير الى أن التقدم والقوة التي لا تقيدتها الاخلاق تصيب العالم بهزات عنيفة قاسية .

ان صلة الانسان بالتاريخ وفهمه له تطور تطورا كبيرا منذ ذلك الوقت الذي لم يكن فيه سوى ضرب من الميثولوجية ، او قصص واساطير الاولين . فقد طرات تغيرات جذرية على العلاقة الجدلية التي تربط انسان اليوم بتاريخه ، حين أصبح المؤرخ يبحث عن اسباب الاحداث واسرارها الدفينة، مما ادى الى اهتمامه بالجماهير والظواهر التاريخية ، وجميع الظروف المحيطة بها بعد ان كان يقصر اهتمامه على القادة والاحداث البارزة .

الزمان وفلسفة التاريخ : اثار الفلاسفة عدة اسئلة حول مفهوم الزمان . ما المقصود بالزمن ؟ هل له بداية ؟ ما ابعاده ؟ وما نهايته ؟

ان اصحاب النظرات الدينية ربطوا الزمان بالخلق الاول ، وبمصير الانسان في الدنيا ، وبنهاية يرتبط بها حساب وعقاب وثواب ، ومن أبرز ممثلي هذا الاتجاه فيلون (٢٥ ق.م - ٥٠ م) بالنسبة لليهودية ، ثم القديس أوغسطين (٣٥٤ - ٤٣٠ م) بالنسبة للمسيحية (٢٤) وابن خلدون المتوفى (٨٠٨ هـ) بالنسبة للإسلام .

اما علماء الفلك والانثروبولوجيا الفلسفية ، وعلماء الحياة ، ومن هذا حذوهم من المؤرخين المتأثرين بالعلوم الفيزيائية والطبيعية ، فقد ربطوا الزمن بأحداث فلكية بمعزل عن كل المعاني الدينية . ومن أبرز ممثلي هذا الاتجاه رينان (١٨٢٣ - ١٨٩٢) ، وأرنست هيجل (٢٥) (١٨٣٤ - ١٩١٩) . ويرى بعض المؤرخين أن التاريخ علم « متزمن » ، لان التاريخ علم تقوم قاعدته الاساسية على الزمن ، كما انه يسير في فلك ذي ثلاثة حدود يتمثل في الانسان ، والمكان ، والزمان . والانسان هو الكائن الوحيد الذي يعي الزمان (ماضي ، حاضر ، مستقبل) ، فالزمن التاريخي يتصف بدبومة متصلة الحركة تمتاز بالتغير المستمر والتنوع ، او ما يسمى بالحس التاريخي . فالتاريخ ، لانه صورة الانسان ، لا يرتبط بالزمن فقط بل ان ارتباطه بالمكان لا يقل عن ارتباطه بالزمان .

وتعتبر هذه الخطوة هامة في الانتقال من الكتابة التاريخية المعروفة ، في سرد الحوادث سردا قصصيا مع ذكر زمانها ومكانها الثابتين الى التفسير الفلسفي للتاريخ الذي يفسر الحوادث تفسيراً منطقياً ويحاول فضلا عن ذلك ان يكتشف القانون الذي ينظم هذه الحوادث ويحاول ان يجد في حدوثها معنى يعطي لحوادث الماضي تسلسلا منطقيا ، وينير الحاضر ويضيء بعض جوانب المستقبل (٢٦) .

الفلسفة ومسار التاريخ ، حاول المؤرخون وفلاسفة التاريخ منذ القدم تفسير مسيرة التاريخ ، فاستعانوا بالماضي في محاولة لثقب حجب المستقبل ، وكان التفسير السحري (الميتافيزيقي) للتاريخ من اقدم التفاسير التي استندت الى عامل واحد من هذه العوامل ، وقد تطور هذا الاتجاه في العصور الوسطى في صورة التفسير اللاهوتي . كما برز التفسير الفردي (البطولي) للتاريخ الذي يأخذ بعامل الفرد البطل الذي يقوم بأعمال خارقة في صنع التاريخ . ومن هذه الاتجاهات ايضا التفسيرات الطبيعية للتاريخ والتي تطورت الى الصورة التي عرفت (بالمادية التاريخية) التي تعرف بـ (العلمية) . ان معظم اجتهادات المذاهب والفلسفات لم تحدد الاجابة الكاملة عن العلاقة بين الآلهة والطبيعة والانسان في صنع التاريخ . فمنذ زمن بعيد بدا الانسان يرفض فكرة اعتبار « المصادفة » قوة محركة في الكون ، واخذ يجتهد لكي يكتشف « القانون المسير » الذي يعبر هذا الكون عن وجوده تعبيرا ملموسا ، وقد خطا بذلك خطوات واسعة في تطوير فلسفة التاريخ .

وكانت الخطوات الاولى في محاولة المؤرخين الانتقال من مجرد تسجيل الحوادث تسجيلا بسيطا الى اسلوب تاريخي علمي بنوا فيه كل حادثة على أخرى ، كما شرحوا كل واقعة بواقعة أخرى ، وحاولوا تفسير وربط العلاقة بينها . الا ان هذا الاسلوب لم يوضح الا ظواهر منفصلة ، ربما تعتبر اجزاء من « قصة الكون » . ويقول محمد اقبال :

« ان هذا الكون كون قابل للاتساع والامتداد الى مدى غير محدود ، اذ ربما يكمن في اعماق كيانه حلم مولد جديد ، ان الكون ذو غاية ، بمعنى واحد فقط هو المعنى الذي يدل على انه انتخابي بطبيعته ، وان طريقه اللاتيان بشيء جديد هو العمل الدائب على حفظ الماضي واطافة شيء اليه » (٢٧) .

ان الفلسفة حول علاقة التاريخ بالمستقبل ليست حديثة ، فقد ظهرت من اوائل القرن التاسع عشر ، وانتشرت واحتدمت قبل الحرب العالمية الثانية بصفة خاصة ، وازدادت احتداما في السنوات التي تلتها . والسبب في ذلك هو القلق الذي أخذ يساور

مفكري الغرب عندما شعروا فجأة أن حضارتهم ليست في مأمن من أن يصيبها ما أصاب الحضارات السابقة ، وأن الغد ليس حتما مضمونا . ويمكن ايجاز أبرز الآراء التي تناولت مسار التاريخ على النحو التالي :

— **الاتجاه القائل بأن للتاريخ مسارا واحدا** ، أي النمط الخطي المسترسل التصاعدي ابدا كخط مستقيم ، وبروح مطلقة . ويعتبر هيجل (١٧٧٠ - ١٨٣١) أبرز فلاسفة هذا الاتجاه ، فهو يرى أن للتاريخ مسارا واحدا ، ويسير وفق خطة معينة ، ومهمة الفيلسوف هي معرفة هذه الخطة ، وأن التاريخ هو تحقيق الغاية التي أرادها الله من وراء الخلق . ويتفق هيجل في ذلك مع ابن خلدون (وقد نبعت فلسفة كل منهما من تجاربه الخاصة في ظل الظروف التي عايشها) واعتمد تفسيره على الماورائية الفلسفية الدينية المسيحية .

بدل هيجل على نظريته تنوع خاص من الجدل أو الحوار يسمى عادة باسم Dialektik وعن طريق هذا الجدل وصل هيجل الى القول بأن « العقل » أو « الفكر الانساني » يسعى دائما نحو التقدم ليصل الى « العقل أو العلم المطلق » الذي يعتبره مثالا يحتذيه (٢٨) . ومن هنا يوصف هيجل بأنه مثالي ، ويعتبر في طليعة المثاليين الالمان . وتتميز فلسفته بالصفاء والاستعلاء والقرب الى المذهب الجماعي في الحكم . ويمكن ايجاز أفكاره في هذا المجال على النحو التالي :

— ان الجماعات الانسانية تسعى للانتقال من حالة الهمجية والوحشية الى مستوى الدولة ذات النظام والقانون ، والذي لا بد ان ينتهي يوما الى تحرر البشر جميعا وعيشهم في سلام في ظل القانون ، ويقوم التاريخ الصحيح على تأدية الامم للرسالة الانسانية ، فلا يكون تاريخ أمة جزءا من تاريخ العالم الا اذا كانت تلك الامة في اثناء تاريخها هذا تؤدي رسالة (٢٩) .

— على الذين انشأوا الدولة ان يستعملوا القوة والعنف ليلزموا الناس بطاعة القانون قبل ان يصلوا الى النظام والقانون من تلقاء انفسهم ، ولا يستطيع جميع الناس ان يصلوا الى ذلك في نفس الوقت .

— الايمان بالفكر أو العقل المطلق الذي يسير الاحداث في الكون ، ويعتبره مثالا أو مثلا أعلى .

— ان فلسفة التاريخ هي التاريخ منظورا اليه بدكاء .

— ان التاريخ ، بناء على ذلك ، انما هو عملية طويلة مقدرة بقدر Vorsehungs Prozesse يأخذ فيها كل حدث أو ظرف مكانه ومبرراته على ضوء مسار التاريخ في مجموعه .

وقد اهتم هيجل اهتماما خاصا بالتطور الانساني للدولة متفقا بذلك مع رانكه الذي قال ان الدول أفكار الله Gottes Gealanken ، ويريد بذلك انها تقوم بتقدير الله سبحانه (٤٠) . ويقول هيجل ، ان الصيرورة ليست متروكة للمصادفة والاسباب العارضة بل هناك « ارادة مخططة » وراها ، وان هدف هذا الصراع والتوفيق انما هو تطوير « روح العالم » (٤١) ، التي تتجه دائما نحو غايتها ، ألا وهي تحقيق الذات Self realization . كما يقول ان تفسير التاريخ هو بيان لعواطف البشر وعقرياتهم وقواهم الفعالة التي تقوم بدورها على مسرح العالم الكبير . وان الصيرورة التي تقررها المشيئة السامية المهيمنة والتي تعرفها تلك العواطف والعقريات والقوى الفعالة ، هذه الصيرورة تكون ما يسمى بخطة المشيئة العليا (٤٢) . وتتلور الفكرة الفلسفية حول البحث عن القوى العامة التي تحرك مسار التاريخ عند هيجل بالنظر الى التاريخ أو العملية التاريخية Geschichte Prozesse — كما سماها هيجل — على انها عملية صعود منطقي الى مستويات عقلية أو فكرية جدلية Dialektische Stufen تنتهي آخر الامر الى تحقيق ما تقصد اليه القوة العليا المدبرة لشؤون الكون Weltgeist من توحيد العالم في كل واحد Weltganz يعيش في حرية وأمان . كما يرى هيجل اننا نستنتج مجرد استنتاج من تاريخ العالم أن تطوره كان دائما صيرورة عقلية (حركة فكرية متقدمة نحو الاعلى) ، وان هذا التاريخ قد انشأ الطريق المنطقي الضروري لروح العالم ، تلك الروح التي تكون طبيعتها دائما واحدة لا تتغير .

وتعرف فلسفة هيجل ايضا بفلسفة المتناقضات ، وتتلخص في أن التطور انما هو نتيجة صراع المتناقضات على أساس ان كل ظاهرة تحتوي تناقضا داخليا يدفعها الى الامام ويؤدي بها آخر الامر الى تحطيمها وتحولها الى شيء آخر . الا أن تحطيم ظاهرة ما انما هو الفرصة لانبثاق ظاهرة جديدة تدفع بلا شك الظاهرة السابقة . ولكنها في الوقت نفسه تحتوي في ذاتها على كل عناصرها الفعالة . وبهذه الطريقة يتحول النظام الفلسفي (٤٣) الى نظام آخر .

ويأخذ المؤرخون على آراء هيجل انها ترضي الفيلسوف ، أو العقل الانساني ، لكنها لا تعين الانسان على تفسير الحركة الدائمة للتاريخ . كما ان هيجل وغيره من المثاليين يقولون ان الفكر هو الذي يوجه التاريخ ، لانهم هم انفسهم كانوا جزءا من

النظام القائم ، وكانوا قادة الفكر فيه ، وتفكيرهم كله تأيد له ولاوضاعه ، ومن العسير عليهم أن يتصوروا انهم في حملة الصورة الخارجية لنظام الجماعة . كما اشتهر هيجل بمناصرته للدول والنظم الرأسمالية التي سادت الغرب في أيامه .

الاتجاه القائل بان الظروف المادية للمجتمعات هي التي تحرك التاريخ ، المادية التاريخية (Historical Materialism)

يعتبر كارل ماركس Karl Marx (١٨١٨ - ١٨٨٣) أبرز فلاسفة هذا الاتجاه ، ويرى أن الاوضاع المادية للمجتمعات ، واحوال الملكية ، وصراع الطبقات بعضها مع بعض ، هي العوامل التي تدفع حركة التاريخ كله . وهذا هو ما يسمى بالتفسير المادي للتاريخ . كما ان ماركس يعترف بوجود عواطف الايثار ، والحماس الديني ، والوطنية ، وغيرها بين الخصال المثالية ، ولكنه يردّها بدورها الى الاوضاع الاقتصادية وأثرها المباشر أو غير المباشر على العقل الانساني .

ويعتبر العديد من المؤرخين أن المحاولة الماركسية من أبرز محاولات تفسير الافكار التطورية في محيط العلوم الاجتماعية، وكان لها أكبر الاثر في كثير من التواحي، في السياسة ، والاقتصاد ، والتاريخ ، والاجتماع ، والنقد الادبي ، وحتى في بعض العلوم الطبيعية . ومن أشهر الكتب في ذلك « المذهب المادي والنقد الاختباري والتجريبي » ، وهو كتاب اقرب الى مذهب اليقينية واللباقة الذهنية منه الى الاسهام في نشر المعرفة . وترى المدرسة المادية أن الانتاج المادي لجماعة ما هو الذي يحدد صورة نظامها الاجتماعي والسياسي والفكري بصورة عامة ، فليس وعي الناس هو الذي يحدد صورة حياتهم ومستواها الاجتماعي ، بل العكس هو الصحيح صورة حياة الناس ومستواهم الاجتماعي هما اللذان يحددان درجة وعيهم .

ويقول ماركس ان الاحوال او الاوضاع الاقتصادية لاي جماعة هي التي تحدد صورة نظامها ، وكل مظاهر حضارتها في المجالات السياسية ، والدينية ، والفنية ، والفكرية ، وان أساس النظام الاقتصادي هو الانتاج ونوعه وأساليبه ، وتوزيع ثرواته .

ويعتبر ماركس ، وفريدريك انجلز ، وسان سيمون ، وهم قادة المدرسة المادية، ان التاريخ يتلخص في صراع مستمر بين العاملين (من زراع وصناع) - او بين ما يسمى بالطبقة الثالثة Tiers - etat والطبقتين الممتازين المستفيدتين من جهود العاملين ، وهما طبقة النبلاء (الملوك ورجال الاقطاع) ، وطبقة كبار رجال الدين او

الكليروس ، وسان سيمون هو أول من تنبه الى أن صراع المصالح الاجتماعية ، أو مصالح الطبقات الاجتماعية ، هو السبب الرئيسي في الحركة التاريخية ، وهو أول من تنبه الى حرب الطبقات وحرب المصالح ودورها الكبير في حركة التاريخ . وقد ربط ماركس النظرية الهيجلية لتعاقب النماذج الحضارية مع الكفاح من أجل البقاء (٤٤) ، وكانت النتيجة تفسيره للتغير في التاريخ على أساس تفرده المادية ، أي أن السيطرة على طرق الإنتاج تقرر أمة طبقة ، ومن ثم أية نماذج فكرية ، يمكن أن تسود في فترة ما . غير أن الصراع المستمر بين الطبقات يجب أن يوصل في النهاية الى انتصار البروليتارية (طبقة العمال) . وتتلخص فلسفة ماركس في أن الإنسان يجب أولاً أن يأكل ويشرب ويتخذ مسكناً ولباساً قبل أن يستطيع أن يبحث عن سياسة أو دين أو علم أو فن وما سواها . ويرى أن تاريخ المجتمع منذ وجد وحتى الآن هو تاريخ صراع طبقات ، بين الدهاقين والاقنان ، والنبلأ والعامه ، وبين السادة والعبيد ، وبين أرباب العمل والصناع (٤٥) . وبكلمة واحدة بين ظالم ومظلوم . ويؤكد ماركس أن العامل الاقتصادي هو العامل الوحيد الذي يقرر الكيان الاجتماعي لأمة ، وأن كل الجوانب المختلفة من حياة البشر تتخذ شكلها وفقاً للظروف الاقتصادية التي تكتنف فترة معينة ، وبذلك فهي مدينة بوجودها تماماً الى العوامل الاقتصادية . وما المجتمع الاقطاعي والمجتمع البرجوازي « الطبقة الوسطى » الا أمثلة لتلك النتيجة الجماعية لعقد العلاقات الانتاجية ، وكل منها يرسم خطوة هامة في التطور التاريخي للجنس البشري . ويرى ماركس أن التغير المادي للاوضاع الاقتصادية للإنتاج هو التغير الأساسي ، وأن هذا التغير المادي تغير حقيقي يمكن تقديره بدقة علمية . أما التغير في الاشكال القانونية والاضاع السياسية والدينية والفكرية والفلسفية فهو تغير مظهري ، أي في الاشكال الظاهرية ، التي تسمى في مجموعها بأيدولوجية النظام القائم . وهي نتيجة لاسباب ، وطبقة علوية خارجية Super Structure وليست أساساً . وبصورة أخرى فإن ماركس اهتم بالجانب المادي من الحياة والنظر الى المحيط كعامل في حوادث التاريخ ، ومن ثم اشارك العامة في موكب التاريخ ، وتعتبر آراء ماركس رد فعل معاكس ضد الآراء التي سادت قروناً طويلة وجعلت من بعض الافراد ، ملوكاً وأباطالاً ، يغيرون وجه التاريخ .

وبعد ظهور الماركسية انكر بعض المؤرخين أن يكون للفرد دور حقيقي يذكر في التطور التاريخي ، وأن الدوافع الحقيقية في ذلك التطور تكمن في الجماعات وما يحدث في حياتها من تغير . فالجماعات هي الأعماق التي تتكون في صلبها التعاريج العظمى التي تغير وجه الكون . والهزات التي يرتجف لها من حين لحين .

الاتجاه القائل بأن التاريخ يسير على شكل دوائر يفضي بعضها الى بعض ،

ويعتبر فيكو (١٦٦٨ - ١٧٤٤) أبرز فلاسفة هذا الاتجاه ، فقد أعطى فيكو تصورا جديدا للتاريخ العالمي يعرف بالمفهوم العالمي . وتتلخص آراء فيكو التي أثبتتها في كتابه « العلم الجديد » في قيام الدول وسقوطها ومحاولة البحث عن أسباب القيام والسقوط ، ويرد ذلك الى عوامل بيولوجية ، وهو بذلك يتفق مع ابن خلدون في تشبيهه للدول والحضارات بالنباتات والحيوانات ، بقوله ان لها أعمارا لا بد أن تمر فيها ، فالبيئة الاجتماعية من صنع الانسان وتصلح لتكون أساسا لفهم التاريخ ، ويؤخذ عليه انه اتسم بقوله للخرافات وعكس ذلك على فهمه التاريخي (٤٦) .

وكان لامبرخت من أوائل من فكروا في البحث عن سر التاريخ ، عن طريق تحليل عدد من الحضارات والبحث عن العوامل التي سببت قيامها وهبوطها ، واستنباط المعاني من ذلك التحليل ، أو ما يسمى بدلالات التحليل الحضاري .

Külturmor Phologische Geschi Chts Deutungen

ويرى شاردان ان مصير كل حضارة الى فناء وزوال ، وهي وان يادت وزالت الا ان الانسان باق وهو في ارتقاء وتقدم من اجل بناء حضارة جديدة . وقد تساءل شاردان عن امكانية التعرف على غد الانسان عن طريق دراسة وفهم علم التاريخ .

الاتجاه القائل بان التاريخ يسير في دوائر مغلقة ، ويعتبر اوزفالد شبنجلر

Oswald Spengler (١٨٨٠ - ١٩٢٣) أبرز فلاسفة هذا الاتجاه . ويرى شبنجلر ان قيام الحضارات ونموها ووصولها الى القوة ، ثم انحدارها ، يشبه العملية البيولوجية للكائنات الحية من تطور عضوي Naturhafte Prozesse ، متفقا بذلك مع ابن خلدون حيث يقول ان الحضارة تمر بعصور انشاء ، ونضج ، وانحدار ، أي ان الاستجابة الابداعية تصل الى ذروتها ثم تتوقف ، بمعنى ان موت الحضارة لا مفر منه . ويعرف هذا الاتجاه بالنمط الدوري ، على أساس ان للتاريخ حلقة أو جملة حلقات متناهية زمانا ومكانا ، منفصلة بعضها عن بعض ، تمثل كل حلقة منها حضارة ، من يوم نشوئها عند ابتداء الحلقة الى يوم نهايتها الحتمية عند انغلاق الحلقة ، أي تدهورها ، ومن ثم سقوطها . فكل حضارة اذن حلقة لها بداية ونهاية ، حلقة متناهية تمر بأطوار أربعة : التكوين ، فالنمو ، فالجمود ، فالانحلال ، والاضمحلال ، أي انها تشبه الكائنات الحية ، فهي تولد وتموت . وقد أصبحت فلسفة شبنجلر حافزا لبعض المؤرخين للاتجاه الى العمل العلمي في دراسة التاريخ وفقا للمنهج التاريخي دون البحث عن قواعد عامة في التاريخ ، لعل ذلك يساعدهم على الخروج بنتائج تكون أكثر فائدة بالنسبة للفكر الفلسفي من المحاولات المضنية لتقنين مسار التاريخ .

الاتجاه التجريبي في اطار النمط الدوري لتحديد مسار التاريخ ، ويعتبر ارنولد توينبي Arnold Toynbee ابرز فلاسفة هذا الاتجاه (٤٧) . فقد حاول من خلال فحص الحوادث لا أن يوصف الماضي ، بل أن يستنتج منه عبرة وفلسفة ، وجملة من القوانين التي تسير الكون ، وتدفع التيار البشري ، وترسم الخط البياني لما سيكون عليه الغد . وقد وضع توينبي في صدارة دراسته العوامل الفكرية والروحية ، خلافا لما كان يفعله ماركس من تقديم العوامل المادية على غيرها . وهذا الاتجاه الذي يرسمه توينبي لا يعتبر جديدا في حد ذاته ، فهو يتفق في معظمه مع ابن خلدون . الا ان توينبي لا يكتفي بالملاحظة كي يصل الى نتائج تفرضها التجربة فرضا ، وتنتهي الى تصور عام لقاية التاريخ ومصير الحضارات (٤٨) .

لقد اتجه توينبي بالدراسات التاريخية اتجاها يتسم بالتوسع والشمول ، واجتهد في أن يتحقق مما اذا كان للتاريخ مسار معين يمكن التعرف عليه ولو على وجه التقريب ، ومعنى ذلك انه وجه اهتمامه الى ما يسمى أحيانا بما وراء التاريخ Metahistory أي البحث عن القوى أو العوامل أو المناهج التي تسير التاريخ (٤٩) .

يرى توينبي أن كل الحضارات التي درسها مرت بأطوار متشابهة في النمو واستمرار التقدم ، وزيادة القوة ، ثم تعقب ذلك مرحلة من المصاعب الداخلية والخارجية يليها تصدع العناصر التي قامت عليها قوة هذه الحضارة ، وربما انتهى الامر بتفككها أو تصدعها ، ويعقب ذلك تحولها الى دولة عالمية Universal State ، أي ان عناصر قوتها تتفرق في الشعوب التي كانت منها كما حدث مثلاً بالنسبة لدولة الرومان .

كما يرى أن لا خير ولا شر في اضمحلال الحضارات ، لان تجاربها لا تذهب سدى بل تنتقل الى غيرها ، وتكون نقطة بداية لتجربة جديدة أو عنصر من عناصر قوتها . ويقول توينبي ان التاريخ لا يعرف حضارة تزول تماما ، وانما الذي يحصل في الغالب ان الحضارة بعد أن تتم دورتها على يد أمة من الأمم وتجمد أو تتحجر Petrifies تتفكك وتنتقل عناصرها الى أمة أو أمم جديدة لتقوم حضارة أو حضارات جديدة .

وقد استعان توينبي بفكرة «التحدي والاستجابة Challenge and Response» اثناء دراسته للامم التي اختارها موضوعا لدراسته ، واعتبرها مفتاح نظريته العامة للتاريخ . ويرى أن المجموعات البشرية تقودها دائما جماعات من القادة أو أصحاب الرأي، وهؤلاء هم الذين يقودون الجماعة في استجابتها للتحدي ، ويحددون نوع هذه الاستجابة بحسب ملكاتهم . فاذا كانت استجابتهم قائمة على ابتداع الوسائل التي تمكن الجماعة من التغلب على المصاعب التي تواجهها والسير الى الامام كانت هذه

الجماعة موفقة ، وسار تاريخ الجماعة الى الامام ، لان استجابتهم كانت ابتكارية أو ابتداعية Creative Reponse . ولا تزال الامة في صعود وتقدم ما دام قادتها محتفظين بالقدرة على الاستجابة الابتداعية . فاذا عجزوا عن ذلك أخذ سير الجماعة كلها يتلكأ ويتراخى وربما توقف . وقال بعد ذلك انه من الممكن أن تستمر الحضارة في الحياة اذا استمرت في الاستجابة الابداعية وانه بإمكان الانسان أن ينقلت من الجبر وأن يوجه تاريخه في الطريق المناسب .

ونموذج آخر يراه توينبي ، كلما زادت قسوة الارض على ساكنيها زاد كفاح اهلها للتغلب على صعابها(٥٠) .

الاتجاه الى البحث عن قواعد وقوانين تحكم مسيرة التاريخ . نجد هنا أن الفلسفات التاريخية قد تعددت حول مفهوم هذه المسيرة التي تعتبر في حركة دائبة ، فمن فلاسفة التاريخ من يرى أن التاريخ في تقدم مستمر ، ومنهم من اتجه الى وضع مسيرة التاريخ في دوائر مغلقة يفضي بعضها الى بعض ، ومنهم من يرى أن مسيرة التاريخ مرهونة بالارادة الالهية ، فابن خلدون يرى أن القدرة الالهية هي التي تسير التاريخ ، ويقول بهذا الصدد : « ... وما ينتحله البشر بأعمالهم ومسايعهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع ، وسائر ما يحدث من ذلك العمران بطبيعته من الاحوال ... »(٥١) . و « طبيعة الاحوال » هذه يعتبرها ابن خلدون القانون الذي بمقتضاه يسير التطور الضروري الذي هو سنة من سنن الله في الكون .

ومن فلاسفة التاريخ من اجتهد في البحث عن القوانين التي تحكم هذه المسيرة ، حيث يرى ماكس(٥٢) Max أن فلسفة التاريخ بدأت حول فكرة هي « أن التاريخ يحكمه قانون » حتى لو كانت المصادفة هي هذا القانون . وهنا يجدر القول بأنه عند الاخذ باعتبار المصادفة قانونا يحكم التاريخ ، فان فلسفة التاريخ لا مجال للبحث فيها، ذلك لان حركة التاريخ لا تخضع للحوادث العمياء التي لا يقيدتها نظام ، بينما النظم الفلسفية لها خطواتها واتجاهاتها واسلوبها نحو تطور الروح المطلقة التي تتوصل الى ادراك ذاتها بشكل فلسفة محددة في كل حقبة من حقبة التاريخ .

كما أن فكرة البحث عن قواعد وقوانين تحكم مسيرة التاريخ ما هي ، لدى بعض المؤرخين ، الا مسألة نسبية . وقد ظهر هذا الاتجاه في نهاية القرن التاسع عشر الميلادي حيث نادى جورج زمل(٥٣) بالبحث عن تحديد مفهوم القوانين التاريخية ، وحاول التوصل الى هذا التحديد ، وقدم في سبيل ذلك جهدا كبيرا يمكن ايراده بايجاز بأن القانون هو قضية تعبر عن العلاقة الثابتة بين مجموعة من الوقائع حدثت

فعلا ثم تتلوه بالضرورة وقائع لا تختلف عنها أبدا . ولتقرير هذه العلاقة لا بد من الفصل بين الوقائع السابقة والوقائع اللاحقة من ناحية . وبين طبيعة العوامل ومجرى الاحداث من ناحية أخرى . واذا نظرنا الى الاحداث التاريخية وجدناها في غاية التعقيد والتركيب والاشتباك بحيث يصعب جدا استخلاص علاقات ثابتة تربط بين هذه الاحداث ، كما هو الحال في الظواهر الفيزيائية . وهذا يفسر انه من المستحيل على المؤرخ أن يقرر وجود روابط أو علاقات ثابتة بين الاحداث التاريخية بحيث تقع النتائج بالضرورة كلما توفرت نفس الاسباب ، ولذا لا نجد في التاريخ حوادث متشابهة تماما ، والحادث التاريخي الواحد لا يتكرر أبدا (٥٤) .

ويرى زمل أن هناك أسلوبين للتفسير العقلي للاحداث التاريخية ، يعتمد الاول على تحليل الحدث الى عناصره الاولى بحيث يقود هذا التحليل الى اعداد قواعد وقوانين للمسيرة التاريخية . أما الاسلوب الثاني فيأخذ بعملية التركيب بين المعاني والعناصر ، حتى يشكل هذا التركيب تركيبات اصلية واضافات هي عبارة عن مجموعات تندرج فيها الاحداث وتبدو كأجزاء لا يمكن تحليلها لما هو أصغر منها ، أي ان عملية الاستقصاء والتحري تصل الى مداها (٥٥) .

ومع ذلك فهناك العديد من المسلمات والفرضيات التي يؤمن بها المؤرخون كديهييات في خلفياتهم الفكرية ، دون أن يخضعوها للنقد أو التعبير عنها من وجهة النظر الاخرى . ومن النادر أن نجد باحثا من الباحثين في فلسفة التاريخ يناقش أيا من هذه المسلمات التي يمكن أن نشير الى بعضها على النحو التالي :

١- وحدة الطبيعة البشرية من حيث التكوين ، فالجنسيات والقوميات لا ترسم بينها فروقا جوهرية ، كما ان الاختلاف بين البشر من حيث العرق أو الثقافة أو البيئة أو الاجتماع هي اختلافات أرجعتها بعض النظريات الى جذور اقتصادية أو فكرية ...

٢- تعقد الطبيعة البشرية ، حيث ان وحدة الطبيعة البشرية ليست بسيطة التكوين فهي معقدة ، وهذا التعقيد لا يوازيه الا تعقد التفاعلات التي تكون بينها وبين العوامل البيئية المؤثرة على طبيعة البشر . ومن محصلة هذه التفاعلات بين الانسان وبيئته يتشكل منظور التاريخ ومجرياته .

٣- ان الاهتمام بدراسة تاريخ الانسانية وتفهمه ، بما فيه من تجارب وافعال وخبرات ، هو من المسلمات المقبولة كقاعدة لتشكيل المعرفة التاريخية .

— ثبات السنن الطبيعية وتطور الظواهر الحية في آن واحد ، أي ان هناك سننا في الكون لا بد وأن تبلغ غاياتها ، كما ان الكائنات الحية ، وبخاصة الانسان ، في تطور مستمر ، وبذلك فان ثبات السنن والتطور امران مترابطان ومتزاجان في نسق ومسيرة يأخذ بها معظم المؤرخين وان تفاوتت آراؤهم في تحديد تلك المسيرة . وهذه السنن والظواهر هي التي تحكم في النهاية الفعل التاريخي وتسير أحداثه .

— الاخذ بعدة نظريات عند تفسير التاريخ منها نظرية صراع الطبقات ونظرية التحدي والاستجابة ، ويستند معظم المؤرخين في اعتبار مثل هذه النظريات قواعد عامة تؤدي الى تعميمات وتفسيرات ، على نتائج الدراسات المقارنة لمختلف الحضارات الانسانية عبر مراحل العصور التاريخية .

وبعد هذا العرض في محاولة استنباط قوانين وقواعد تحكم المسيرة التاريخية ، وبعد التعرف على بعض المسلمات التي يأخذ بها المؤرخون وفلاسفة التاريخ ، فهل من الممكن القول بوجود قانون فعلي ؟

ان الاجابة على مثل هذا التساؤل تعتبر من الامور الهامة ، فهناك فعلا قوانين تحكم الحوادث التاريخية ، فالكون والوجود يخضعان لادق وأعمق القوانين ، قال الله تعالى: «وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل في فلك يسبحون» (٥٦) ، وقال تعالى : « والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز الحكيم ، والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم ، لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون » (٥٧) ، وغير ذلك من الآيات الكريمة التي يزخر بها القرآن الكريم وكلها تدل على أن هذا الكون يخضع لنظام دقيق وقانون ثابت . ومن ثم فمن البديهي أن يشمل نظام الكون الدقيق حياة الانسان باعتباره جزءا من هذا الكون مع ما فضله الله به عن سائر الكائنات حيث جعله الله خليفة في الارض يعمرها ويطورها الى الافضل ، كما فتحت الافاق امام عقل الانسان كي ينظر ويتدبر ويبدع . ومع ذلك فان التوصل الى قوانين راسخة في مجال البحوث الاجتماعية ما زال يمثل مشكلة بالنسبة للمؤرخين والفلاسفة وغيرهم من العلماء الباحثين في حياة الانسان الاجتماعية والتاريخية والفكرية . ويمكن تتبع بعض اسباب هذه المشكلة على النحو التالي :

- عدم توفر وحدة قياس للظواهر والعلاقات التاريخية .
- صعوبة بحث الحادثة التاريخية لغياب عناصر الاستمرار وعوامل التغير ، ووضعها في صيغة واحدة .

- صعوبة التمييز بين الروابط السببية في وقائع التاريخ والعلاقات الوظيفية والبنائية التي تؤدي الى اخراج الوقائع التاريخية .

ومع ما يعترض الباحثين من صعوبات في التوصل الى قوانين فان هناك محاولات جمة بذلت في هذا الصدد (٥٨) ، واستطاع الباحثون وضع تصورات معينة تساعد في استنباط مثل هذه القوانين ، فنرى ابن خلدون يشير الى قيام الدول ثم تماسكها بالعصبية ، والى ارتباط العمران بالاقتصاد ، والى تأثير الانسان بالاقليم والظروف الجغرافية (٥٩) ، كما اشار جونسون الى استنباط قانون الاستمرار والتعبير ، قانون التكامل وقانون حرية الاختيار (٦٠) .

ومن تلك المحاولات يمكن القول بإمكانية ايجاد قوانين تحكم مسيرة التاريخ ، غير ان هذا الامر يتطلب المزيد من الدراسة والجهد مع الاخذ بالاعتبار ان مثل هذه القوانين لا بد وان تكون مختلفة تماما عن القوانين المتعلقة بالعلوم التطبيقية والمجردة ، فليس هنا ملاحظة تجريبية يمكن متابعتها وتدوين نتائجها . ومع ذلك يمكن اخضاع الملاحظات التجريبية باعتبارها جوهرية في المعرفة والعلم اللذين هما نتاج تفاعل بين التجربة والنظرية .

وخلاصة ما عرض له هذا البحث هو تعدد الآراء والاجتهادات حول تفسير مسار التاريخ وهي تفسيرات شملت الفكر اللاهوتي والمثالي والمادي والعلمي ، وغيرها من المذاهب ، الا ان تفسير مسيرة الانسان عبر مختلف العصور التاريخية يجب أن يتضمن الموازنة والادراك لمسيرة التاريخ الانساني ، فالاسلام اضفى الكثير على القيم الروحية ولم يعتبر الممارسات الفردية للشعائر لاهوتيا بل هي قيم أخلاقية مرتبطة بحياة الانسان اليومية كفرد عامل ضمن مجتمع بشري واسع يسعى الى حياة افضل .

لقد اهتم المسلمون بالتاريخ وتفسيره نتيجة لاحتاسهم بذاتهم الحضارية الخاصة في ظل عالمية الرسالة الاسلامية وقوة الروابط بين الشعوب الاسلامية ، وتصورهم لرسالتهم في المجتمع الانساني ، واقامة الحق والعدل في الارض . وبداية يؤكد القرآن الكريم على الدعوة الى العلم والبحث والتقصي والاعتبار والاستفادة بما حدث للامم السابقة ، كما يتميز المنهج التاريخي للقرآن الكريم بتحقيق الرواية وتعليلها والتأكيد على دور الانسان القائم على العلم والمعرفة ، وبهذا يكون الانسان محورا وغاية ومركزا للنفع والعناية ، وقد سخر الله له الكون بما فيه من كائنات وظواهر طبيعية ، ويشير القرآن في هذا الصدد الى فتح الآفاق امام الانسان لينطلق بفكره وعقله : « الله الذي خلق السموات والارض وانزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره وسخر لكم النهار ، وسخر

لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار» (٦١) . وقال سبحانه وتعالى : « ألم تر أن الله سخر لكم ما في السموات وما في الأرض واسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ، ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير » (٦٢) . كما قرب القرآن الكريم بين الإنسان والطبيعة فلم يعد الإنسان يرهب أو يخاف من الظواهر الطبيعية ، فهي آيات الله في الكون وبرهان على قدرته ومجال للتدبير والتفكير ينتفع بها الإنسان كما أراد له الله ، فيكشف الاسرار ويتوصل الى ما يدرا الاخطار ويجلب الخير والسعادة لبني الانسان .

والمتبع لمعالجة القرآن الكريم للاحداث التاريخية يلمس أن القصص القرآني تمثل قطاعات متكاملة من حياة المجتمعات وتبين أوجه النشاط الانساني ، وبذلك تعددت المحاور وزوايا الرؤية (٦٣) مع غياب تحديد الزمان والمكان لكثير من هذه الاحداث . وذلك لان للخبر أو النبأ في مضامين السور هدفاً أسمى وأرقى من مجرد الرواية ، فهو للعبرة والعظة واكتساب الحكمة والمعرفة . وينفي القرآن الكريم أن تكون رواياته وأخباره « أساطير » بل هي قصص وبلاغ وذكر ، « نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وان كنت من قبله لمن الغافلين » (٦٤) ، « وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الامثال » (٦٥) ، « وان كانوا ليقولون ، لو ان عندنا ذكراً من الاولين ، لكنا عباد الله المخلصين » (٦٦) ، « ويسألونك عن ذي القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكراً » (٦٧) ، من هنا جاءت الروايات التاريخية متضمنة المادة العلمية كي يعي البشر الحكمة من وراء الحدث التاريخي وينهجون نهجاً سليماً في حياتهم وسلوكهم معتبرين بما حدث لاقوام سبقوهم كانوا مثلهم بل أقوى وأغنى منهم وعمرُوا الأرض أكثر مما عمروها : « أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة واثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » (٦٨) .

ويؤكد القرآن الكريم على الأسلوب العلمي في استقراء الاحداث والحصول على المعرفة واكتساب الوجود الثقافي ، وهذه أمور تتطلب أعمال الفكر بالنظر والتدبر لاحكام السيطرة على الطبيعة ومواردها التي هي في الأساس مسخرة من الله تعالى لصالح الانسان وخدمته .

تلك محاولة أولوية لفهم علم التاريخ وتطوره ومنهجه أردت منها الاسهام في هذا المجال الهام من العلوم الاجتماعية ، فان أصبت فذاك ما قصدت واستعنت بالله عليه ، وان أخطأت فلنا أجر المجتهد الذي يحاول أن يدلوا بدلوه في مضمار العلم والمعرفة ، والله الموفق .

الحواشي :

- (١) حسن عثمان ، منهج البحث التاريخي ، القاهرة ، ١٩٦٥ ، ص ١٢ .
- (٢) قسطنطين زريق ، نحن والتاريخ ، بيروت ، ١٩٥٩ ، ص ١٣ .
- (٣) Sibree, The Philosophy of History, New york, 1900, p. 60
- (٤) صلاح الدين مدني ، المدخل الى التاريخ ، دمشق ١٩٦٧ ، ص ٢٤ .
- (٥) اصطلاح على تسمية المرحلة الزمنية السابقة على معرفة الكتابة بمرحلة ما قبل التاريخ ويمكن التعرف عليها من خلال التركة الاثرية للانسان المتمثلة بالادوات الحجرية والفخارية والعظمية والرسوم ... الخ .
- اما العصر التاريخي فيبدأ منذ معرفة الانسان الكتابة والتسجيل وهي مرحلة تبدأ في منطقة الوطن العربي القديم مع بداية الالف الثالث قبل الميلاد .
- (٦) Halphen, L' Introduction a l' Histoire , Paris, 1946, P. 53
- (٧) جوزف هورس ، قيمة التاريخ ، ترجمة نسيب وهيبه الخازن ، بيروت ، ١٩٦٤ ، ص ٢٦ .
- (٨) Lewis , B. and Holt , P. : Historians of the Middle East , London 1962 , P. 75 .
- (٩) Fowler , Romans Ideas of Deities , London , 1914 , P. 94 .
- (١٠) البان ، ج. ويدجيري ، المذاهب الكبرى في التاريخ ، ترجمة ذوفان قرقوط ، بيروت ١٩٧٢ ، ص ٩٤ .
- (١١) انظر : السبكي ، قاعدة في الجرح والتعديل وقاعدة في المؤرخين ، تحقيق عبد الفتاح ابو غدة ، القاهرة ، ١٩٧٨ .
- (١٢) السيوطي ، التماريح في علم التاريخ ، تحقيق محمد بن ابراهيم الشيباني ، الكويت (بدون) .
- السخاوي ، الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ، تحقيق القدسي ، بيروت ، ١٩٧٩ .
- عبد العزيز الدوري ، بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب ، بيروت ١٩٦٠ .
- قسطنطين زريق ، نحن والتاريخ ، بيروت ١٩٦٣ .
- عبد الرحمن بدوي ، النقد التاريخي (مجموعة أبحاث مترجمة) ، بيروت ١٩٦٣ .
- (١٣) مقدمة ابن خلدون ، طبعة دار الشعب ، القاهرة ، ص ٧ .
- (١٤) المرجع السابق ، ص ٧ .
- (١٥) ساطع الحصري ، دراسات عن مقدمة ابن خلدون ، بيروت ١٩٦٧ ، ص ١٧ . انظر ايضا محمد الطالبي ، منهجية ابن خلدون التاريخية ، بيروت ١٩٨١ ص ٣٧ .
- (١٦) ظهر العديد من المؤرخين الاوربيين في عصر النهضة الاوربية ، وكان من أبرزهم : ليوناردو برونسي Leonardo Bruni ١٣٧٤-١٤٤٤ ، ومن مؤلفاته كتاب فلورنسا Storia Florentihi ويعتبر من أفضل مؤلفات عصر النهضة ، نيكولو ميكافيلي Nicolo Machiavelli ١٤٦٩ - ١٥٢٧ ، وفرانشيكو جيسارديني Francesco Guicciardini ١٤٨٢ - ١٥٤٠ والتر رالي Walter Raleigh . وقد اشتهر بكتابه « تاريخ العالم » History of The World كما اشتهر عدد من الرهبان في الاديرة الذين اكسبوا على دراسة الوثائق ومنهم : البندكيون دير سان مور Saint Mour بفرنسا ، والراهب فلا Valla ١٤٠٧ - ١٤٥٧ الذي

اشتهر بنقد وتحليل وثيقة قسطنطين والرسول بطرس الزيفة ، والجزويت في بلجيكا وأهمهم
يوحنا بولاند Jean Bolland ١٩٥٦-١٦٦٥ ، وكذلك جمعية البولنديين Les Bollandistes
التي تعتبر من أكبر الجمعيات التاريخية .

(١٧) محمد الالوسي ، علم تحقيق الوثائق والدبلوماسيك ، بغداد ، ١٩٧٨ ، ص ٣ .

(١٨) اشتهر فولتير بمؤلفه عن حياة وأعمال شارل الثاني عشر ملك اسكتليناوة وحروبه مع الروس
Histoire de Charles سنة ١٧٢١ ، وتميز الكتاب بدراسته الوثائقية . كما ظهرت ملكة
فولتير التاريخية في كتابه البديع « خطابات فلسفية » Letters Philosophiques
وهو حافل بالآراء والملاحظات على مسار التاريخ وتصاريه الزمان ، ثم ظهر كتابه الشهور عن
عصر لويس الرابع عشر Le Siecle de Louis XIV الذي ابدع فيه في تحليل الاحداث
والاشخاص . ويميل كثير من المؤرخين الى اعتبار فولتير مؤسس العلم التاريخي بمفهومه الحالي
في الغرب ، رغم انه كان من هواة التاريخ ، كما يضعه العديد من المؤرخين على قمة الفكر
الغربي في عصر النهضة الاوربية ، على اعتبار انه فتح مدرسة جديدة في التفكير التاريخي تتسم
بالنظرة الشمولية . كما ان دراسته عن عادات الشعوب Essai Sur Les Moeurs
تعتبر بصفة عامة اول دراسة تاريخية بمصطلح التاريخ الحديث .

(١٩) مونتسكيو Montesquieu (١٦٨٩ - ١٧٥٥) عاش في عصر التنوير وساهم في اشغال الثورة
الفرنسية ، واشتهر بكتابه « روح القوانين » ، او « روح الشرائع » .

(٢٠) جان جاك روسو Rousseau (١٧١٢ - ١٧٧٨) عاش في عصر التنوير ، وساهم في اشغال
الثورة الفرنسية ، واشتهر بكتابه « العقد الاجتماعي » .

(٢١) رانكة Lepold Von Ranke (١٧٩٥ - ١٨٨٦) مسيحي بروستاني ، ومثالي على مذهب
فيخته ، ويعترف بالجانب الانساني في التاريخ . قال بفكرة التطور العضوي للجماعات وكذلك
باهمية العامل الفردي في توجيه الاحداث ، لكنه انكر استخدام التاريخ كعقبة وعبرة ، وقال ان
التاريخ ينبغي ان يدرس لذاته لا كوسيلة للتعليم والتهديب . ويعتبر رانكة رائدا للمدرسة
الالمانية . وتميز منهجه بالاهتمام بالوثائق التاريخية .

(٢٢) حسين مؤنس ، « التاريخ والمؤرخون » ، عالم الفكر ، المجلد الخامس ، العدد الاول ،
الكويت ١٩٧٢ ، ص ٧٦ .

(٢٣) حسين مؤنس ، المرجع السابق ، ص ٧٦ .

(٢٤) كروتشة Bendetto croce (١٨٦٦ - ١٩٥٢) من أبرز مفكري ايطاليا ، ومن أشهر فلاسفة
التاريخ في عصرنا ، له ٦٠ مؤلفا ، وأهم مؤلفاته :

History as The Story of Liberty . Theory and History of Aistoriograph.
History : Theory and Practice .

وقد اهتم بمقارنة فلسفات المادبة والايجابية في التاريخ .

(٢٥) كولنجوود Collingwood ، من أبرز المؤرخين المعاصرين الممثلين للنزعة التاريخية ويتفق
مع كروتشة في عدم صلاحية المنهج التجريبي لعلم التاريخ ، لان الواقعة التاريخية لا تخضع
لتجارب معملية من وجهة نظرهما ، كما هو الحال في العلم الطبيعي . له عدة كتب منها :
Roman Britain ١٩٣٦ ، وكتاب The Idea of History ١٩٤٤ .

- (٢٦) منذ القرن الثامن عشر والمناقشات تدور حول علمية التاريخ ، ويمكن الرجوع الى مجموعة من المؤلفات منها : « علم جديد » ليفكو ، « فكرة التاريخ العالمي » لكانت ، « فلسفة التاريخ » لهيجل ، « المادية التاريخية » لانجلز ، « تفسير التاريخ » لماركس ، « دراسة التاريخ » لداناي ، « الايديولوجية الالمانية » لماركس وانجلز « عقم المذهب التاريخي » لكارل بوبر .
- (٢٧) ارنولد توينبي Arnold J. Toynbee (١٨٨٩ - ١٩٧٥) له مكانة سامية في التفكير المعاصر ، اشتهر بمنهجه التجريبي ، واتجه بالتاريخ اتجاها شاملا لتاريخ البشر ، ووجه اهتمامه الى العوامل او المناهج التي تسيره . وهو يؤمن بنظرية التحدي والاستجابة ، ويرى أن الحضارات تنمو وتتطور وتضمحل مثل الكائنات الحية . من أشهر كتبه « دراسة التاريخ A Study of History » انظر : فؤاد شبل ، منهاج توينبي التاريخي ، القاهرة ، ص ٧.
- (٢٨) مهرجان توينبي : منشورات اتحاد المؤرخين العرب ، ١٩٧٩ ، ص ٧٠ .
- (٢٩) الدمرداش سرحان ، المناهج المعاصرة ، مكتبة الفلاح ، ١٩٨١ ، ص ٣ .
- (٣٠) جورج سانتيا ، مولد الفكر ، جامعة كولومبيا ، ١٩٦٨ ، مترجم ، بيروت ، ص ١١٩ .
- (٣١) انظر : Hans Meyerhoff , : The Philosophy of History in Our Time , Newyork, 1959.
- (٣٢) محمد اقبال (١٨٧٢ - ١٩٢٧) فيلسوف وصوفي وشاعر ، من أشهر كتبه « تجديد التفكير الديني في الاسلام » ترجمة عباس محمود العقاد ، القاهرة ، ١٩٥٥ . كما تتضمن قصيدته « حوار بين الله والانسان Message de l' Orient Camte » أبرز افكاره ، وترجمها عن الفرنسية ، محمد اشنا ، واسمها بالفارسية « بياض يشرمة » *
- (٣٣) كوميت ، Augustine Comte (١٧٩٨ - ١٨٥٧) حاول البحث عن قواعد وقوانين لسير التاريخ ، فانشأ ما يسمى بالاجابية التاريخية La Positive ، اي التزام الدقة العلمية في كتابة التاريخ مع البحث الدقيق عن المنطق وراء كل حادث وتطور .
- (٣٤) عرض افكاره في كتابه The City of God
- (٣٥) رينان وهيجل من المؤرخين المتأثرين بالعلوم الفيزيائية والطبيعية ، شأنهم شأن علماء الفلك والانثروبولوجيا الفلسفية وعلماء الحياة بالنسبة لمفهوم الزمن في التاريخ وربطه بأحداث فلكية وكونية بعيدا عن المعتقدات الدينية .
- (٣٦) Max Madau , The Interpretation of History , P. 44 .
- (٣٧) محمد اقبال ، تجديد التفكير الديني في الاسلام ، ترجمة عباس محمود ، القاهرة ، ١٩٥٥ ، ص ١٥٥ - ٢٢٤ .
- (٣٨) استخدم هيجل مصطلحا خاصا عن العقل والفكر Der Geist الذي يعني بالعربية « الروح » وبالانجليزية Spirit وفي الفرنسية Esprit ، ولا يقصد بذلك العقل والفكر الانسانيين العاديين ، وانما هو العقل الاعلى الذي يوجه الكون * ونبت فكرته هذه عن ايمانه الوثيقي بالمسيحية الذي يرى فيه اجتماع العنصرين الالهي والانساني ، أي الروح والبدن ، الكنيسة والدولة ، والمعبادة والحياة ، والتقوى والفضيلة ، وانهما مجتمعان ، في روح أو فكر واحد يعتبر القوة التي تحرك كل شيء ، وهذا هو العقل المطلق . وقد شرح فكره في كتابه عن روح المسيحية Das Christliche Geist
- (٣٩) عمر فروخ ، كلمة في تحليل التاريخ ، بيروت ، ١٩٧٧ ، ص ٢٢ .
- (٤٠) Fritz Stern , The Varieties of History , 1956 , P. 61 - 62 .

- (٤١) الروح المحركة للعالم ، وهي الله ، أو الروح المطلقة كما يتصورها بعض الفلاسفة .
(٤٢) J. Sibree, Hegel's Philosophy of History, P. 14.
(٤٣) يقصد هيجل بالنظام الفلسفي Philosophic System الحقائق والاسس والقواعد التي ترتبط بفترة تطورية معينة من التاريخ .
(٤٤) في رسالته الى Kugelman عام ١٨٦٨ يقول ماركس ان دياكتيكية هيجل هي الشكل الاساسي للديالكتيكات ولكن تجريدها من شكلها المبهم Mystical Form هو بالضبط الشيء الذي يميز اسلوبي « ، انظر : صديقي ، تفسير التاريخ ، الكويت ، ١٩٨٠ ، ص ٨٩ .
(٤٥) المرجع نفسه ، ص ٩١
(٤٦) عمر فروخ ، كلمة في تحليل التاريخ ، ص ١٩ .
(٤٧) احدث كتابه A Study of History ضجة كبرى قبيل الحرب العالمية الثانية ، وهو كتاب من عشر مجلدات ، واعيد طبعه واختصاره عدة مرات . فقد اختصره سومرويل Sommerwell عام ١٩٤٧ كما اختصره جليمارد Gillimard تحت عنوان « التاريخ » في باريس عام ١٩٥١ .
(٤٨) Meyerhoff, op. cit. pp. 101 - 102.
(٤٩) حسين مؤنس ، « التاريخ والمؤرخون » عالم الفكر ، المجلد الخامس ، العدد الاول الكويت ١٩٧٤ ، ص ١٠١
(٥٠) Hans Meyerhoff : op. cit, p. 144.
(٥١) ابن خلدون ، المقدمة ، طبعة كتاب الشعب ، ص ٣٣ وما بعدها .
(٥٢) ماكس فيبر Max weber (١٨٦٤ - ١٩٢٠)
(٥٣) جورج زمل (١٨٥٨ - ١٩١٨) من انصار فكرة « نسبية المعرفة التاريخية » ، ومن ابرز مؤلفاته : مشكلات فلسفة التاريخ .
(٥٤) عبد الرحمن بدوي ، « احدث النظريات في فلسفة التاريخ » مجلة عالم الفكر ، المجلد الخامس ، العدد الاول ، الكويت ١٩٧٤ ، ص ٢٢٣
(٥٥) جورج زمل ، مشكلات فلسفة التاريخ ، ص ١٠٨ .
(٥٦) الانبياء ، آية ٢٣ .
(٥٧) يسن ، الايات ٢٨ ، ٣٩ ، ٤٠ .
(٥٨) انظر : هنري جونسون ، تدريس التاريخ ، ترجمة أبو الفتوح رضوان ، القاهرة ، ١٩٦٥ .
عبد الرحمن بدوي ، المرجع السابق . شاعر مصطفى ، « التاريخ هل هو علم » مجلة عالم الفكر ، المجلد الخامس ع الاول الكويت ١٩٧٤ .
(٥٩) ابن خلدون ، المقدمة ، طبعة كتاب الشعب ، القاهرة ، ص ١١٩ .
(٦٠) جونسون ، المرجع السابق ، ص ٣٥ .
(٦١) ابراهيم ، آية ٢٢ ، ٣٣
(٦٢) لقمان ، آية ٢٠
(٦٣) عبد العزيز كامل ، « القرآن والتاريخ » عالم الفكر ، الكويت ١٩٨٢ ، ص ٢٣ .
(٦٤) يوسف ، آية ٣
(٦٥) ابراهيم ، آية ٥
(٦٦) الصافات ، الايات ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٦٩
(٦٧) الكهف ، آية ٨٣
(٦٨) الروم ، آية ٩